همس الأبواب

اســـم العمـــل : همـــــس الأبـــــواب
النـــــــوع : روايـــــــــــة
تـــــــأليف : آيـــــة ياســـــر
تصـــميم الغـــلاف : ســـــارا ياســـــر
إخـــراج داخلـــي : عبـــــدالقادر فـــــايز
الطباعـــــــة : اتيليـــه تـــاتش – المحروســـة
الناشـــــــر : الـــدار للنشـــر والتوزيـــع
المـــدير العـــام : محمـــد صـــلاح مـــراد
تليفـــــــون : ٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـد الإلكترونـي : eddar_press@yahoo.com
فـــيس بـــوك : www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيـــداع : ٢٠١٧/٣٤٧٢
التـــرقيم الـــدولي : I.S.B.N.: 978-977-702-182-1

همس الأبواب

رواية

آية ياسر

الدار
للنشر والتوزيع
٢٠١٧

"حين يسود قانون القوة وتحكم شريعة الغاب تصبح للعدالة وجوه أخرى"

الفصل الأول

"الغرباء"

" الأحلام تتبدد .. كل شـيء يذوب و يتلاشـى في ذلك العالم الجنوني .. الحياة تنسـاب من بين أوصـالي يوماً بعد يوم .. لم أعد أرى أمامي سوى العتمة .. العتمة ولا شيء آخر ؛ منذ أن هبط على رأسي أولئك الغرباء ... "

بأحرف مرتعشـة سـطرت "مارجريت" تلك الكلمات في مفكرتها الصـغيرة .. تفتح زجاج النافذة فيخترق كيانها رياح شـتوية باردة .. تحدق في الأفق الواسع .. تترقب بزوغ أشعة الفجر لتنساب مبددة الظلمة .

أخذت تفكر وتسـبح بمخيلتها في عوالم التيه حيث تختلط الحقائق بالأوهام .. عادت بذاكرتها إلى أحداث ذلك اليوم الشاق ...

سـيارة فارهة داكنة اللون يقودها سـائق هندي في خريف عمره ؛ جاءت لتنقلها إلى البيت .

تجلس "مـارجريـت" على الأريكـة الخلفيـة وتحـدق في قطرات المطر المتناثرة على زجاج السيارة المغلق ..

هاتفها النقّال يصـدر اهتزازات ؛ وسـرعان ما تمسـك به وتفتحه لتجد رسالة قصيرة قد وصلتها .. تقرأها في صمت ثم تمسحها في عجالة .

السيارة تتوقف أمام بوابة عملاقة تحيط بها أسوار شـاهقة .. وما أن تجتاز البوابة وتسـير على الدرب المؤدي إلى القصـر الذي تحيطه

حديقة أشبه ما تكون بالأحراش حتى تتراءى لعينيها سيارات الشرطة تحيط بالقصر من جميع مداخله ...

كان السيد "رمزي" زوج عمتها ممداً على الأرض جثة هامدة والدماء تحيطه من كل جانب وعلى ما يبدو أن عظامه قد تهشّمت كلياً .

قلب "مارجريت" يصدر خفقات عالية أشبه ما تكون بطبول الحرب ..

عادت الذكريات الأليمة لتلهب بسياطها مخيلتها وتراودها عن آخر ما تبقى لها من رشاد ...

كانت حينها "مارجريت" تعد عمرها على خمس أصابعها أو يزيد .. تمارس لعبتها المفضّلة " الاختباء" .. كم عشقت هذه اللعبة ؟!! .. تختبئ منزوية في أحد الأركان أو خلف الأبواب .. لم يكن يكدر صفوها في تلك اللحظات سوى ذلك الحزن الدفين ومرارة الشعور باليتم .

في تلك الليلة رأت الشيطان بأم عينيها وقد تجسد في صورة بشري يقال أنه زوج عمتها !! ؛ فما فعله في تلك الليلة ربما يعجز الشيطان نفسه عن فعله !! ..

رأته والشـرر يتطاير من عينيه .. يدلف عبر الباب ثم يوصـده بإحكام .. قلبها يحدثها بأن أمراً جللاً سـيحدث فتؤثر الاختباء .. يخبأ شـيئًا ما خلف ظهره ولكنها لم تتبينه من مخبأها هذا ..

يتسلل خلف عمتها .. يلصق مسدسه برأسها ..

العمة تطلق شـــهقة مكتومة .. وقلب الصـــغيرة "مارجريت " يكاد أن ينخلع ..

تريد أن تصـرخ .. أن تطلب النجدة .. فعمتها هي كل ما تمتلكه الآن في هذه الحياة ...

الخوف جمّد أوصالها والصرخات تحجرت في حلقها .. وقبل أن تحرك ساكنًا كانت رصاصة غادرة قد استقرت في رأس العمة !! .

أرادت أن تمسك بذلك المسدس وتفرغ رصاصاته في دماغ "رمزي" ؛ لكنها لم تسـتطع أن تفعل شـيئا سـوى أن تطلق العنان لعبرات حارة تدفقت على وجنتيها ..

بكت في صـمت والألم يعتصـر قلبها .. ومنذ تلك الليلة لم تعد الدموع تعرف إلى عينيها طريقاً.

دفنت السـر في أعماقها كي لا تلقى مصـير العمة .. لم تكن تدري كيف اعتبرت الشرطة قضية مقتل عمتها انتحاراً ؟!.

لكنها الآن أصبحت تمتلك تصوراً عن كيفية حدوث ذلك ..

فعمتها أوقعها حظها العاثر في حبائل شيطان تزوجت به .. كان قادراً على شـــراء أي شـــيء بأمواله الطائلة بما في ذلك ذمم وضـــمائر الآخرين !!.

رأت أشياءاً لم يكن من المفترض بها أن تراها .. نبشت أسرارًا دفنت مع أصحابها ولم يعلمها سواهم ..

في الظلام وخلف الأبواب كانت تتلصـــص وتســـترق الســـمع ولأنها صغيرة الحجم لم يلحظها أحد ..

في الظلام وخلف الأبواب كبرت "مارجريت" قبل أوانها وكبرت معها أسرارها ...

تعلمت أن تحبس أنفاســـها وتكتم صـــرخاتها حتى لو رأت الجحيم بعينيها ..

أخذ الألم يعتصر قلبها يوماً بعد يوم حتى تحول إلى مأساة ..

وفي الظلام وخلف الأبواب تمخضـت المأسـاة ومن رحمها خرج كائن أسود سواد الليل في ليلة خلت فيها السماء من أقمارها ومصابيحها ..

وفي الظلام أخذ ينمو يوماً بعد يوم ؛ لكنه لم يخرج يوماً إلى النور خشية أن يحترق وتحترق "مارجريت " معه ...

خلف الأبواب كان يختفي هناك منزوياً في أحد الأركان يراود "مارجريت " عن نفسها وعن ما تبقى لها من عقل ..

كان ينتظر أن تسمح له الفرصة بالخروج ليأخذ بالثأر القديم ..

أفاقت "مارجريت " من شرودها حين تفاجأت بأحد ضباط الشرطة يفتح باب السيارة ويطلب إليها أن تخرج منها ..

وضع القيود الحديدية حول معصميها .. قال لها إنها متهمة بالتورط في قتل الرجل ؛ فالشهود أكدوا أنها على خلاف مع "رمزي" وأنها تشاجرت معه بقسوة ليلة أمس وكانت تتوعده ..

لم تنبس ببنت شفة .. تحركت معه في صمت فعقلها كان مشغولاً بأمور أخرى أكثر أهمية بالنسبة إليها ! ..

ولمّا وجد وكيل النيابة أن لديها حجة غياب كافية عن مسرح الجريمة رأى إطلاق سراحها في الحال ؛ فالفتاة كانت في رحلة جامعية خارج القاهرة آنذاك .

عادت إلى البيت مرهقة .. بالها مشغول بأمور عدة ؛ لكن شعوراً بالراحة يشوبه فرح خفي غمرها وطغى على إحساسها بالتعب ...

اليوم فقط ستهنأ بالنوم الهادئ الذي لم تظفر به منذ أكثر من خمسة عشر عاماً !.

هاتفها المحمول يصدر رنين شبه متصل ؛ لكنها لا تجيب .. يزعجها صوت الرنين فتلقي بالهاتف بعيداً في عصبية ظاهرة ..

تملأ حوض الاستحمام بالماء الدافئ وتتمدد بداخله ..

الصداع يداهمها بلا رحمة ..

تطلق العنان لأفكارها ..

هاهي قد تخلصت من بعض أثقال الماضي بعد أن رحل الشيطان عن عالمها ؛ ولكنها باتت تخشى من المجهول ..

هل يمكن أن تسوء الأمور أكثر مما كانت عليه ؟!! .

تمسك بمنشفة جافة لتزيل عن جسدها آثار الماء ..

ترتدي رداء الحمام وتفتح الباب لتسير عبر الردهة ..

راقتها كثيرًا فكرة أن تســـير عبر ردهات القصـــر بهذا الثوب دون أن يزعجها أحد ..

في الحقيقة واتتها فكرة جنونية بأن تتجرد من الثياب .. إنها الليلة الأولى التي تهنأ فيها بالحرية ..

ظلام دامس يغطي ذلك الممر .. تتحسس طريقها متسائلة عما أطفأ المصباح ؟! ..

تتعاقب أنفاسها وتخشى أن تتعثر في أحد الأشياء ..

يصطدم جسدها بكيان ما !!.

تصدر عنها صرخة مكتومة ..

للحظات يتوقف قلبها عن الخفقان ..

هل عاد إلى الحياة من جديد ؟!!.

أم أن هذا شبحه جاء ليطاردها ويقتلها ؟! ..

صوت ذكوري يغزو أذنها يقول لها :-

• ماذا تفعلين هنا ؟!

لم يكن هذا صوت "رمزي" .. بل صوتا آخر يفيض عذوبة وشباباً ... ردت عليه بعد أن تبينت أنه لا صحة لهواجسها الجنونية قائلة :

• بل أنا من يجب أن يسألك ذلك السؤال !!.

فجأة تضاء الردهة فتقع عيناها على شاب فى نهاية عقده الثاني من العمر يقف أمامها ويرتدي بذلة أنيقة بدون ربطة عنق ..

ملامح وجهه بها شيء من الوسامة على الرغم من قسوة نظراته ..

أخذ يتفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها بنظرات استهزاء شابتها كراهية ملحوظة ..

" مارجريت " تصاب بالارتباك .. حمرة شديدة تتسرب إلى بشرة وجهها الناصع البياض حين وقعت عيناها الرماديتان على رداء الحمام الذي ترتديه .. حمدت الله على أنها لم تنفذ فكرتها الجنونية بالتعري .

أرادت أن تخفي ارتباكها فقالت بعدائية واضحة :

• إلام تنظر ؟!.

رد عليها باحتقار قائلاً :

• إلى الساقطة التي قتلت عمي ..

ترفع ذراعها عالياً وتهمّ بأن تهوى بها على صفحة وجهه لولا أنها سمعت صوتاً غاضباً يقول :

• أنتما ماذا تفعلان ؟

وسرعان ما تراءى لها رجلاً في الأربعينات من عمره يبدو عليه الوقار ، لم تعد "مارجريت" تعي شـــيئاً مما يحدث حولها ؛ فقالت وقد جن جنونها تقريباً :

• من أنتما حتى تقتحمان منزلي وتهينـاني ؟! .. ســـوف أتصـــل بالشرطة.

الشاب ذا النظرات الثاقبة يقول :

• إنه منزل عمي وبصفتنا الوريثان الوحيدان له فقد صار ذلك المنزل ملكًا لنا الآن . وإن كان هناك من يجب أن يرحل فورًا فهو أنتِ ..

• مارجريت بتحدي : ماذا تقول ؟؟

• الرجل الوقور : أنتِ محقة ما كان يجب أن نقتحم المكان بدون إذن منكِ ولكننا لم نعلم بأنكِ لازلتي هنا ..

• الشاب معترضًا : من تلك حتى نستأذنها يا أخي ؟!

• الرجل محتدًا : هلا صمتت قليلاً يا "بهاء" .. أعتذر عن فظاظة أخي فهو حزين لوفاة عمه ..

يلوح على وجهها شبح ابتسامة ساخرة وتمتمت قائلة :

• لا يبدو ذلك .

• الرجل : أعرّفك بنفسي أنا الدكتور "نزار" ، وهذا أخي الأصغر "بهاء " إنه مندفع قليلا ولكنه طيب القلب .

"بهاء" يولى ظهره لأخيه ووجهه لا تبدو عليه إمارات الارتياح ؛ أما الأخ الأكبر فيتابع حديثه قائلاً :

• إذاً أنتِ "مارجريت" قريبة زوجة عمي – رحمة الله عليهما – .

"مارجريت" تحدّث نفسها قائلة :

• وهل تجوز الرحمة على رجل مثل رمزي ؟!.

ثم تقول موجهة كلامها للرجل الواقف أمامها :

• وأنتم جئتم لتقيمون هنا ؛ أليس كذلك ؟

• نزار : نعم وأرجو ألاّ يزعجكِ ذلك ؛ فأنا أتفهم جيدًا أنكِ عشتِ هنا طيلة حياتك وأنه لا مكان آخر لديكِ لتسكني فيه .. أعتقد أن هذا القصر الفسيح لابد أن يتسع لنا جميعاً يا عزيزتي .

"مارجريت" ووجهها خالي من التعبيرات تقول:

• افعلوا ما تريدون ودعوني أذهب إلى غرفتي لأرتدي ثيابي .

"نزار" يفســـح لها الطريق مرتبكاً وقد أدرك فقط الآن أنها ترتدي رداء الحمام !! ...

***

الفصل الثاني

"الماضي يعود"

" ليتني أتمكن من البوح بمكنونات صـدري .. ليتني أتمكّن من إطلاق العنان لعبراتي ؛ لكن ماذا عساي أن أفعل فعيناي متحجرتان وخاويتان تماماً مثل قلبي ؟!! ..

فى كل مرة أحاول فيها أن أفك أسـر الكلمات أجد لسـاني مشـلولاً وعاجزاً عن الحراك وكلماتي تتخلي عني وتهرب مني ..

أخاف .. أصـحو وأنام مع الخوف .. الخوف من المجهول وأشـياء أخرى كثيرة ..

الخوف اللامتناهي يلازمني كظلي مهما حاولت إخفاءه .. نعم حتى "مارجريت" التي يخشاها الجميع تخاف ! .. "

خطّت "مارجريت" تلك السطور على صفحة مذكرتها الصغيرة ؛ لكنها سرعان ما مزقتها إربا ً وألقت بها في سلة النفايات .

أطلقت زفرة حارة ثم التفتت لتنظر إلى المرآة .. تحدق للحظات في صورتها المنعكسة على السطح الزجاجي .. تعبس قليلاً وتقول :

• ماذا جرى لكِ ؟ .. هناك أسرار ينبغي أن تبقى في طي الكتمان وأن تدفن معكِ .. دعكِ من أفكاركِ المجنونة وتعالي لنكمل ما بدأناه .

تبتسم ابتسامة ماكرة قبل أن تطفأ الأنوار ثم تغادر الغرفة .. بحذر تجتاز الردهة وتتسلل من الباب الخلفي للقصر .. تتوجه نحو المرآب وتشغل محرك سيارتها ، وتبدأ بقيادتها مولية وراء ظهرها القصر بمن فيه .. ترفع صوت مسجل السيارة فتنساب ألحان صاخبة لموسيقى "الروك" .. تردد " مارجريت " كلمات الأغنية الغربية محاولة قتل الوقت الذي تمضيه في زحام السيارات .

تلمح في المرآة صورة منعكسة لسيارة سوداء تتبعها .. تزيد من سرعة السيارة لتتأكد من صدق ظنونها ؛ لكن السيارة السوداء لا تزال تلاحقها .. القلق يتسرب إلى نفسها .. تعقد حاجبيها والغضب الجنوني يبدو في عينيها .. تتجه يمينًا ثم إلى شارع آخر على يسارها .. تحاول الاندساس وسط حشود السيارات المتكدسة في شوارع وسط القاهرة ..

السيارة المطاردة تستقر إلى جوارها .. وهاتفها المحمول يواصل الرنين .. تمسك به لترى من المتصل .. إنه رقم خاص لا تستطيع معرفة صاحبه .. تضغط على الزر .. تجيب بتردد .. يخترق مسامعها صوته الذكوري الخشن ..

تتبدل ملامح وجهها وتتحول إلى حمرة الغضب .. تصرخ في وجه المتصل قائلة :-

• ماذا تريد يا "جاسر" ؟ .. ألا يكفيك كل ما حدث لي بسببك ؟

• جاسر – أوقفي سيارتكِ الآن .. ينبغي أن نتحدث .

• مارجريت – إذاً أنت من يلاحقني بسيارته .. هذا تصرف متوقع من شخص مثلك .

• جاسر – مارجريت .. عزيزتي إياكِ أن تثيري غضبي فأنتي تعلمين جيداً ما يمكنني فعله .

تمر لحظات من الصمت المطبق قبل أن تنفذ "مارجريت" ما أراده الشاب الثري المتغطرس .. تصعد إلى جواره في سيارته السوداء .. يضع أنامله على وجنتها محاولاً إزاحة خصلات من شعرها الأسود حجبت عنه عينها .. تزيح يده بغضب قائلة :

• كيف سمحت لنفسك بتركي وحيدة في هذا المأزق ؟! .. حتى أنك لم تكلف نفسك عناء الحضور إلى النيابة للاطمئنان علىّ .. دائمًا ما تتباهى بقدراتك اللامحدودة وسلطات والدك ونفوذه ؛ لكنك لم تستطع أن تفعل لي شيئا حين ألقت الشرطة القبض علىّ .. كان من الممكن أن أقضي حياتي خلف القضبان بسببك أنت .. يالك من وغد فاشل!!.

جاســـر ذا العيون الزرقـاء والملامح الحـادة يمعن النظر في وجـه "مـارجريت" ويتنقل بعينيـه بين مفاتن جســـدها بحرية تامة ؛ وما أن انتهت من حديثها حتى أجابها قائلاً :

• كم أعشقكِ وأنتِ غاضبة .. تكونين مثيرة للغاية .

• مـارجريت – لا تحاول أن تفقدني صـــوابي .. قل لي لماذا اختفيت عن الأنظار ؟!.

• جاســـر – كيف يفوت امرأة ذكية مثلك ذلك الأمر ؟ .. هل تريديني أن أفضـح نفســي وأكشـف عما كان بيني وبين ذلك الحقير " رمزي " من صـفقات تتم بعيدًا عن أنظار الحكومة ؟! .. تعرفين أيضًـا كم هو منصب والدي حساس ولن أقبل أن تتعرض سمعة عائلتنا للتشويه .

• مارجريت – لهذا آثرت أن تتركني أواجه اللوم على مقتل الشـــيطان كي لا تتلوث سـمعة عائلتك ؟!! .. ألا يكفيني ما تعرضـت له بسـببه أثناء حياته ؟! .. لماذا علىّ أن أعاني أيضـا بعد موته ؟! .. قلت إنك ستقوم بحمايتي ولكنك كذبت ..

جاسـر يمسـك بيديها ويضـمهما بين راحتي يده ويشـرع في لثمهما .. يطيل النظر إلى عينيها ويقول لها :

• أنا حقا آســف .. كنت أراقبكِ من بعيد وأرســلت رجالي ليطمئنوني عليكِ ؛ وللأسـف لم يكن بمقدوري المجيء .. أنا آسـف يا حبيبتي .. هيا قولي إنكِ سامحتني .

• مارجريت – دعك من هذا الهراء وهيا أخبرني ما الســـبب الحقيقي وراء ملاحقتك لي ؟! .. كلانا يعلم أنه ليس بسبب اشتياقك لي .

• جاسـر – دائمًا ما تسـيئين الظن بي ؛ على أية حال أردت أن أقول لكي أحسنتي صنعًا؛ ولكن للأسف فاتكِ شيء هام .. إذا كنتِ تريدين أن يبدو الأمر وكأنه انتحار فعليكِ ألاّ تتركي دليلاً واحدًا يثبت أنهُ قتل ؛ وإن لم تفعلي فدعي الأمر للمحترفين فهم يجيدون عملهم جيدًا .

• مارجريت – عن أي شـيء تتحدث ؟! .. هل تصـدق أنت أيضًـا أني قتلته ؟!.

• جاسر – وهو يقهقه ضاحكًا : بالطبع لا يا ملاكي الصغير .. بالفعل كدت أصـدق أكاذيبك ؛ كل يوم يزداد إعجابي بكِ فأنتِ ممثلة بارعة .. "مـارجريـت" .. عزيزتي لا أحـد على وجـه الأرض كره " رمزي" وتمنى موتـه بقدركِ أنتِ ؛ وإذا لم تقومي بقتلـه كـان حتمًا ســـيقتلكِ ؛ ولـهذا أقول لكي أحسنتي صنعاً فلو لم تفعلي لكنت قتلته بنفسي .

• مارجريت باسـتهزاء – ولماذا لم تفعل وأنت تعلم جيدًا أنه كان يخطط لقتلي ؟! .

• جاسر – لا تراوغي يا حبيبتي فنحن لسنا في قسم الشرطة .. فقط أخبريني كيف تمكنتِ من قتله ؟! ولماذا لم تنتظري حتى أخلصكِ منه؟!.

• مارجريت – توقف عن ذلك .. أنت تعلم جيداً أني كنت خارج القاهرة حين وقعت الجريمة ؛ فكيف يعقل أن أكون من قتله ؟! .

• جاسر – هذا ما يثير جنوني !!.

***

" لا يمكننا السماح بدفن عمكم الآن حتى يتم الانتهاء من تشريح جثته .. " هذا ما قاله الضابط حاسماً بذلك الحوار الدائر بينه وبين " نزار" وأخاه "بهاء" الغاضب بعدما قضيا قرابة نصف الساعة يحاولان إقناع الضابط بضرورة الإفراج عن جثمان عمهما "رمزي" ؛ سأل " نزار" الضابط قائلاً :

• ألا زلتم تعتقدون أنه قتل ؟

• الضابط – نعم ، هناك شبهة جنائية .

• نزار – وما الذي جعلكم تعتقدون ذلك ؟

• الضـــابط – لا يمكنني إخباركم بأكثر من ذلك حفاظاً على ســـرية التحقيقات .

• بهاء – هل هنالك من تشتبهون به ؟

• الضابط – هناك احتمال كبير في أن يكون القاتل أحد سكان القصر ؛ وربما أحد رجال الأعمال المنافســـين له يقف وراء مقتله .. ليس هناك شخص بعينه حتى الآن .

• بهاء – وتلك الفتاة .. ماذا عنها ؟

• الضابط – أي فتاة تقصد ؟

• بهاء – "مارجريت" .. لماذا أطلقتم سراحها ؟

• الضابط – لم نجد ما يدينها .

• نزار – لا أعرف لماذا تصر على اتهامها يا أخي ؟!.

• بهاء – إنها مثيرة للشبهات .. ينتابني شعور سيء تجاهها .. ولا تنســـى أن جميع الخدم أكدوا أنها تشـــاجرت شـــجاراً عنيفاً مع عمي وتوعدته قبل يوم من وقوع الجريمة .

• الضـــابط – أنت وكيل نيابة وتعلم جيداً أن عملنا لا يبنى على المشـــاعر والتكهنات بل على الأدلة والقرائن .. على أي حال دع التحقيقات تأخذ مجراها الطبيعي .

اخترق صـــوتاً ذكورياً أجشـــاً مســـامع "بهاء" الذي كان فى طريقه للخروج من "مشـرحة زينهم " برفقة أخاه ؛ فالتفت ليرى من ذاك الذي يناديه ؟ ..

يلمح أمامه شاباً ضخم الجثة أسمر البشرة حاد القسمات في عقده الثالث من العمر ؛ وقد ارتســمت على ثغره ابتســامة عريضــة تظهر جلياً أسنانه ناصعة البياض .

لم تمضي سوى ثوانٍ معدودات تأمل فيها "بهاء" الشخص الواقف أمام ناظريه حتى تهللت أساريره وقال في حبور بالغ :-

• "هاني" .. يالها من مصـــادفة رائعة !! .. لقد مر زمن طويل على آخر لقاء لنا .

• هاني – كيف حالك يا صديقي العزيز ؟

• بهاء – أنا بخير ولله الحمد .. وأنت ماذا عنك ؟

• هاني – أنا على ما يرام .. لم أرك من حفل زفافي .. هل علمت أنني صرت أباً ؟ .. لقد رزقت بتوأمين رائعين .

• بهاء – هذا خبر رائع .. مبارك لك .. حســـنًا دعني أعرفك بأخي الأكبر الدكتور "نزار" .

• هاني – مرحبًا .

• نزار – أهلا بك .

• بهاء – هذا صـــديقي "هاني" هو أيضًـــا وكيل نيابة ؛ لكنه يكبرني ببضع سنوات .. لطالما استفدت من خبراته الكثيرة .

• هاني – أنت تبالغ يا صديقي .

أخذ الثلاثة يتحدثون ســـوية ؛ وســـرعان ما اســـتأذنهما "نزار" في الانصراف متعللاً بكثرة أعماله ومشاغله ..

وبينما الصـــديقان يتجاذبان أطراف الحديث أخبره "بهاء" عن ســـبب قدومه إلى المشـــرحة ؛ وروى له ما وصـــل إلى أســـماعه حول وقوع جريمة قتل ارتكبها مجهول بحق عمه .

ولدهشـــته أخبره "هاني" أنها القضـــية نفســـها التي يعمل على التحقيق فيها وأنـه هو أيضًـــا جاء إلى هنا ليطلع على الجثة وتقارير الطبيب الشرعي بنفسه .

تمضـــي لحظات من الصـــمت يشـــوبها تفكير عميق قبل أن يقطعها "هاني" قائلا :-

• أصـــارحك القول يا صـــديقي أن تلك القضـــية أغرب قضـــية عملت عليها طيلة حياتي .

• بهاء – لماذا تقول ذلك ؟! .

• هاني – أعلم أن هذه معلومات ســـرية ولا يجدُر بي أن أفصـــح لك عنها ؛ لكني حائر للغاية وأريد أن تمنحني رأيك في هذه القضـــية المعقدة ؛ ليس لأنك وكيل نيابة وحســـب بل أنت أيضًـــا ابن شـــقيق القتيل وقد تستطيع مساعدتي في حلها .

• بهاء – لا أعرف لماذا كل هذه المراوغة ألسنا صديقان وتوجد بيننا ثقة متبادلة ، والقتيل هو عمي الوحيد ؟! .. هيا قل لي ما الذي تحاول إخفاءه ؟ .

• هاني – عليك أن تقسم أولاً بأن تحفظ السر .

***

فى المساء عادت " مارجريت" إلى القصر .. اجتازت البوابة العملاقة ووضـــعت ســـيارتها في المكان المخصـــص لها .. صـــعدت الدرجات

المؤدية إلى الطابق العلوي .. التقطت أذناها صوتاً جعلها تتسمر في مكانها ..

• " مارجريت" .. أنتي " مارجريت" أليس كذلك ؟

التفتت إلى الوراء لترى من صاحب هذا الصوت ؟ .. لم تصدق عيناها حين وقعتا عليه .. أيعقل أنه هو ؟! .. كيف وصل إلى هنا إذًا ؟! .. أيمكن أن يلتقيا عقب كل تلك السنوات الماضية ؟! .

• مارجريت – نعم أنا هي " مارجريت" .. هل أنت "مازن" ؟! .

تهللت أسارير الشاب الأسمر البشرة وبرقت عيناه الخضراوتان ولمعت على ثغره ابتسامة وقال لها :

• أنتي تتذكريني إذاً .. خفت كثيرًا من أن تكوني قد نسيتني .

• مارجريت – كيف جئت إلى هنا ؟! .. ومتى وصلت ؟! .

• مازن – عدت اليوم من أمريكا لأنضم إلى أبي .

• مارجريت – أباك ؟! .. ألم يتوفى والدك منذ زمن ؟! ..

• مازن – أقصد زوج أمي الدكتور "نزار" .. لا شك أنكِ التقيتيه .

• مـارجريـت – "نزار" هو زوج أمـك !! .. عجبـا !! .. يبـدو أنني آخر من يعلم .. إذاً أين والدتك ؟ .. لقد اشتقت إليها أيضاً .

"مازن" يطرق قليلاً إلى الأسفل ويجاهد ليواري دمعة اندفعت من عينه رغماً عنـه .. " مـارجريت" يتملكها القلق وتصـــوب نظرة إلى عينيـه تحمل مزيجاً من الاستجداء والأسى .. قالت له بانفعال صادق :-

• أرجوك .. قل لى أنها بخير .

• مـازن وقـد دمعـت عينـاه – لقـد رحلـت .. رحلـت عن عـالمنـا يـا "مارجريت" .. هل تصـدقين ذلك ؟! .. قضـى عليها مرض السـرطان اللعين ولم يتمكن الأطباء في أمريكا من إنقاذها .

• مـارجريـت – يـا إلـهي .. أنـا حقـا آســفـة .. لطالمـا أحببتهـا وكنت أعتبرها بمثابة أمي الحقيقية ..

تسود لحظات من الصمت الثقيل ؛ كان "مازن" في هذه الأثناء يجاهد ليكبح جماح دموعه المنهمرة على وجنتيه ؛ أما " مـارجريت" فكانت تتوق إلى أن تشـــاركه البكاء ؛ لكنها كعادتها بقيت جامدة عاجزة عن التعبير .. بأصـابع مرتعشـة تشـعل سـيجارة وتنفث دخانها بعصـبية واضحة .. التفت إليها مندهشاً وتسائل قائلاً :-

• منذ متى وأنتِ تدخنين ؟! .

لم تكن ردة فعل " مارجريت" حين سألها الشاب سؤاله منطقية بأي شكل من الأشكال !! .. أطلقت ضحكة هستيرية صاخبة قبل أن تلاحظ تبدّل ملامح الفتى الذي وقف مشدوهاً وقد ارتفعا حاجباه إلى الأعلى ومكث للحظات فاغراً فمه وهو لا يصدق ردة فعلها الغريبة!!..

يبدو أن حزنها على المرأة الوحيدة التي اعتنت بها في صباها وخففت عنها بأس السنوات التي قضتها تحت قبضة الشيطان بعد رحيل عمتها قد أطاح بصوابها .. أجابته قائلة :-

• العالم يتغير يا عزيزي ؛ فكيف لا أتغير أنا ؟! .. أيعقل أن ترحل وتتركني بمفردي في ذلك المكان أصارع وحدي من أجل الحياة لسنوات طويلة ثم تجدني هذه الطفلة التي كانت تلعب معك في صباك؟!! ..

***

الفصل الثالث

" الأبواب المغلقة "

في ليلة باردة سالت قطرات دم دافئة على غطاء فراش " مارجريت" ؛ لكنها كانت تغط في سبات عميق .. وعندما استيقظت كانت صدمتها كبيرة حين اكتشفت أن ثيابها أيضاً ملطخة بالدماء !! ..

انتابتها حالة من الهلع وتداعت إلى مخيلتها ذكريات مخضبة بالدماء دفنتها مكرهة في أعماق قلبها لتخفيها عن أعين المتلصصين منذ تلك الليلة التي قتل فيها الشيطان عمتها وحتى ليلة أمس التي رأت فيها جثة أحدهم وقد مزقته كلاب " رمزي " وسحقت عظامه ..

قضت ساعات حتى أدركت أن بداخلها هي يكمن منبع الدماء !! .. تضاعف فزعها حين عرفت أنها تنزف .. هرعت إلى المرآة لتتأمل صفحة وجهها فوجدت أن اصفراراً وشحوباً شديدان يغمرانه .

باتت متيقنة في تلك اللحظات من أن نهايتها صارت وشيكة ؛ فسرعان ما ستنفذ الدماء من جسدها وتنساب معها الحياة من جسمها رويداً رويداً ، ولن يمضي سوى القليل حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة وتسقط صريعة الموت الذي حصد روح عمتها .

" عمتي .. لن أموت قبل أن أثأر لمقتلك .. لن أدع الشيطان يهنأ في مهجعه وأنتي تشقين حيث أنتِ .. قريباً سوف أرسله إلى الجحيم .. "

همست " مارجريت " بتلك الكلمات قبل أن تقذف بقارورة العطر تجاه المرآة لتتناثر قطع الزجاج في كل أرجاء الغرفة .

تحظى بلحظات من الصـــمت .. تنزع عنها ثيابها المتســـخة وترتدي حلة نظيفة .. تسلل من غرفتها وبحذر تجتاز دهاليز القصر وردهاته متجهة نحو الحديقة .. تركض قرابة الكيلومتر قبل أن تصـــل البوابة الخلفيــة المهجورة التي عثرت على مفتــاحهــا بين أغراض عمتهــا الراحلة .

وبأنفاس لاهثة متقطعة تطرق باب الڤيلا المجاورة .. تضـغط على زر جرس البوابة بهيسـتريا وصـدرها يعلو ويهبط بسـرعة خاطفة .. تفتح الباب خادمة عجوز وتدعوها إلى الدخول .. تسـألها " مارجريت " عن " مازن " وأمه ، وعن ما إذا كانا موجودين ؟ ..

وقبل أن تنبس الخادمـة ببنـت شـــفـة كـانـت الأم قد تراءت لهـا وهي متهللة الأســـارير ؛ ولكن ســـرعان ما تبدلت ملامحها وعلاها الوجوم حين رأت حالة " مارجريت " المزرية .

وفور أن لمحتها هرولت الفتاة ذات الإثنا عشـــر ربيعًا إلى أحضـــان السيدة قائلة :-

" إني أحتضر .. أرجوكِ لا تدعيني أموت .. "

الأم يرتفع حاجباها إلى أعلى وقد وقفت مشـــدوهة فاغرة الثغر تحدق في " مارجريت " للحظات دون أن تحرك ســـاكناً .. وبصـــعوبة بالغة استعادت رباطة جأشها وقالت لها :

" لماذا ؟! .. لماذا تقولين هذا الكلام السيئ ؟! "

• مارجريت – استيقظت من نومي ووجدت الدماء تغمر ثيابي وفراشي.

الأم تتنفس الصعداء وتتنهد علامة الارتياح ويعلو وجهها شبح ابتسامة .. تضم " مارجريت " قائلة :

• لا تخافي يا صغيرتي الحلوة فأنتي بخير .. هذه هي الطريقة التي يخبركِ بها جسمك بأنكِ لم تعودي طفلة صغيرة بعد اليوم .

• مارجريت – ماذا ؟ .. كيف ؟! .. ألست أحتضر ؟!! .

• الأم ضاحكة – لا تقولي ذلك .. لست أعرف ما الذي جعلك تفكرين على هذا النحو ؟! .. هذا الأمر طبيعي ويحدث لجميع الفتيات حين يصرن نساءاً ناضجات .

• مارجريت – حقا !! .. ولكن لماذا وجهي شاحب هكذا ؟! .. حسبت أني سأموت .

• الأم – لأن الذعر قد تملككِ ؛ وربما تكونين أيضاً مصابة بفقر الدم وسوء التغذية .. ومع ذلك سوف أصطحبك اليوم إلى الطبيب ليفحصكِ ويتأكد من سلامتك .. أتعجب لماذا لم يخبركِ أحد من قبل عن تلك الأمور ؟! .. يا إلهي .

• مـارجريـت – لأنـه لا أهل لي .. ربتني عمتي – رحمها الله – بعد رحيل والداي ، والآن أحيا مع زوجها والخدم !! .

• الأم – يا حبيبتي الحلوة منذ اليوم سـأكون بمثابة أم لكِ ، وبإمكانك أن تدعوني أمي .

" مـارجريـت " تبتســـم وتعانقها ثم تنهض فجأة كمن لدغته أفعى قائلة:-

• صحيح أين "مازن" ؟

• الأم ضـاحكة – دعكِ من "مازن" الآن وتعالي معي فهناك أمور أهم سنتحدث عنها .

.. ثمانية أعوام مضـت على ذلك اليوم ؛ لكنها لم تنسـها أبدًا إياه .. حين رأت صـديق طفولتها وصـباها الوحيد أخذت ذكريات قديمة تدمي رأسـها وتنبش جراح الماضـي البشـع الذي عانته وتتحايل على الأيام لإخفائه ...

كانت الرياح تعصف بقوة وبرودة شديدة تزحف إلى الأوصال لتحيلها إلى زرقة الموتى .. في تلك الليلة من ليالي شـــهر ديســـمبر التي انتصـف فيها القمر السـماء القاتمة متوسـطاً سـحابات داكنة تسـتعد لتضع أوزارها وتغمر كل شيء ..

أخذت كلاب "رمزي" تعوي بوحشية جعلت النوم يهجر أجفان "مارجريت " .. صـوتاً ما خارج غرفتها بعث بالقلق في نفسـها ؛ فنهضـت من فراشـها وأخذت تسـير على أطراف أصـابعها بخفة متسـللة إلى حيث باب الغرفة ..

تلصق أذنها بالباب لتسترق السمع .. تلتقط أسماعها خطوات تقترب أكثر فأكثر .. باتت تسمع صوتها بوضوح .. سمعت أيضًا همسات وغمغمات غير مفهومة ثم طرقات عنيفة على الباب ..

تسـلل الخوف إلى نفسـها والتزمت الصـمت لدقائق ؛ لكن الطرق لم يتوقف قط بل ازداد قوة وإصراراً ..

بصوت خافت سألت :

• من هناك ؟

جاءها صوتًا أجشًا يقول لها :

• افتحي الباب .. أنا رمزي .

• مارجريت – ماذا هناك يا عمي ؟! .. هل حدث شـــيء ؟! .. لقد تجاوزنا منتصف الليل بكثير وكنت أغط في سبات عميق .

• رمزي – هناك أمر هام .. هيا افتحي .

كانت ترتجف خوفاً ومع ذلك اضطرت إلى أن تذعن لرغبة زوج عمتها السكير مع أن قلبها حدثها بأنه يضمر لها شراً .. ماذا عساها أن تفعل ؟! ..

هل ستحميها الأبواب المغلقة من بطش رمزي ؟! ..

وجدته أمامها يتمايل وفي يده قنينة الخمر فتراجعت إلى الخلف بضع خطوات وهي لا تدري أتلوم نفسها على فتحها للباب أم لا ؟ .. "رمزي" حين يثمل يفقد رشده تماماً .. لقد قتل زوجته ذات يوم ولم يرجف له جفن ، وكل يوم تتلوث يداه هو ورجاله بدماء الآخرين .. فهل ستنجو الفتاة ذات الإثنا عشر ربيعا من أن تلقى مصير عمتها إن أراد بها ذلك ؟! ..

ألقى بالزجاجة الفارغة وأخذ يقترب منها بينما تتراجع هي إلى الخلف حتى وجدت نفسها محاصرة بين الجدار وجسد "رمزي" الذي جذبها نحوه بقسوة وهي واجمة لا تدري حقيقة ما يحدث بالضبط .. حتى بدأ في تمزيق ثيابها بهيستريا ..

قالت له في توسل :

• أنت ثمل .. أرجوك دعني وشأني ..

لكنه لم يستجب لتوسلاتها قط .. امتدت يدها لتمسك بقارورة عطر موضوعة على الطاولة وبسرعة رفعتها إلى مستوى عينيه .. تضغط عليها ليندفع رذاذ العطر بداخلهما .. يتأوه "رمزي" بشدة بينما يفرك عيناه ..

كانت "مارجريت" قد لاذت بالفرار – في ذلك الوقت – خارج الغرفة وأخذت تركض عارية القدمين ممزقة الثياب في ردهات القصر ..

كان قلبها ينبض بقوة جعلتها تظن أن دقاته باتت مسموعة للجميع .. لم تكن تعرف إلى أين تتجه ؟ .. لكنها عرفت أنه يتوجب عليها الفرار وإلاّ ستلقى المصير البائس الذي لاقته عمتها ..

فرت من القصر إلى حديقته المخيفة التي تشبه الأحراش ؛ ولكنها سرعان ما تفاجأت بحركة غير عادية في القصر وكأن قيامته قد قامت !! .

بدت لها فجأة جميع غرفه مضاءة ، ثم ما لبست أن سمعت أصوات حراس "رمزي" ونباح كلابهم البرية المتوحشة التي يربيها سيدهم ويطلقها لتلتهم من يريد .

أدركت أنها في كارثة حقيقية وأن الموت يبعد عنها بضع أمتار .. كانت تشعر دومًا بأنها ستواجه الموت يوماً ما على يد ذلك الرجل ..

لكن لا .. لا يمكنها أن تستسلم للخوف ليقضي عليها إن لم تلحق بها كلاب "رمزي" .

تركض وتركض بكل ما أوتيت من قوة تدفعها غريزة البقاء التي تجرى في أوصالها .. تلهث بشدة وتكاد تنقطع أنفاسها .. الرياح تعصف بضراوة وتوشك أن تقتلع "مارجريت" من على الأرض .

البرودة تجمد أوصالها أو لعله الخوف .. لا تدري "مارجريت" أيهما أشد عليها عتياً ؟! .

باتت تسمع صوت خطواتهم ونباح كلابهم يقترب شيئاً فشيئاً .. لابد أن تفعل شيئاً لتنجو من السحق بين أنيابهم .. تبحث عن مكان يخفيها ولا يطالها فيه أحد .. ولكن بلا جدوى .

لا شيء حولها سوى الأشجار الشاهقة .. لم يعد أمامها مهرباً من أن تتسلق إحداها لتنجو ..

كانت "مارجريت" قد اعتلت أحد الأغصان المرتفعة وانكمشت إلى جوار الشجرة العجوز حين حاصر ثلاثة كلاب إياها وقد كشروا عن أنيابهم الحادة والشرر يتطاير من أعينهم ..

مرت عليها لحظات كالجحيم قبل أن يبدأ غصن الشجرة بالتمزق ؛ وأخذت ذكريات حياتها تمر أمامها بسرعة البرق .. تذكرت الصورة

الوحيدة التي خلفتها لها أمها وراءها ؛ وكيف أنها أحرقتها ليلة مقتل عمتها .. أخذت تتذكر حنو عمتها عليها واللحظات السعيدة التي استرقتها مع "مازن" وأمه بعيداً عن أنظار "رمزي" ..

شعرت وكأن قلبها قد انخلع حين هوى بها الغصن المتأرجح إلى أسفل ، وكان آخر ما رأته "مارجريت" مخالب الكلاب السوداء تمتد إلى أعلى محاولة الإمساك بها .. وفي جنح الظلام وبين الأشجار الكثيفة لمحت الفتاة شبحاً لأخرى تطابقها تماماً كما لو كانتا توأمتان .. كانت تتجه نحوها قبل أن تغيب "مارجريت" عن الوعى .

لم تعرف ما الذي حدث ؟! .

وما هذا الشيء الذي رأته ؟!! .

صحيح أن الظلام كان دامساً إلاّ أن شعوراً قوياً أكد لها أنها لم تكن بشرية فهي إن لم تكن كذلك فكيف عثرت "مارجريت" على أشلاء الكلاب الوحشية ممزقة حولها ؟!! .

أيعقل أنها روح عمتها تجسدت في تلك الصورة وعادت من عالم الموتى لإنقاذها أم هو كيان أرسله أباها المتوفى لحمايتها ؟!! .

هل يمكن أن تكون حالة غريبة من حالات الخروج من الجسد *؟

أم أنه ما قرأت عنه لاحقاً ويقال عنه التواجد المزدوج* ؟ ..

هل هذا الشيء آدمياً أم أنه ينتمي إلى عالم الجان كالقرين مثلًا ؟!!.

لا يهم الآن ما هو ذلك الشـــيء الذي اخترق الأشـــجار ومزق الكلاب وظهر من العدم ثم اختفى كأنه لم يكن يوماً .. لكن الشـــــيء الوحيد المؤكد هو أن هذا الكيان أنقذ حياتها من الموت المحقق .

لم يكن لدى "مـارجريت" وقت للتفكير حين أفاقت من إغمائها عندما تســاقطت الأمطار بغزارة لتبلل ثيابها الملطخة بالوحل وتغمر صــفحة وجهها و كان الرعد يخترق أذنيها بوحشـــية .. أدركت أنها لم تغب عن الوعي سـوى بضـع دقائق .. عاودت الركض مجدداً حتى وصـلت بوابة خشبية قديمة .. تتسلقها وتفر إلى الخارج ..

كانت متجهة صوب غرفتها حين ناداها "مازن" قائلاً :-

• "مارجريت" .. أبي يطلب منكِ أن تنضمي إلينا لتناول العشاء .

فكرت "مارجريت" للحظات وعلى الفور أدركت أن سنوات طويلة مضت لم تتنـاول خلالهـا الطعـام برفقـة عـائلـة ؛ حتى أنهـا لم تجلس على مائدة الطعام تلك منذ وفاة عمتها .

في البداية كان خوفها يمنعها من الاقتراب من "رمزي" إلاّ إذا لزم الأمر ؛ ولكن فيما بعد أخذ حقدها تجاهه ينمو يومًا بعد يوم ؛ لذا لم تحتمل حتى مجرد التفكير في الأمر لأن ذلك وحده كفيل بإثارة الغثيان في

نفسها ؛ إنها حتماً تفضل التضور جوعاً على تناول الطعام إلى جانب ذلك الشيطان ..

ردت على "مازن" قائلة :-

• أنا متعبة وأريد أن آوي إلى فراشي ؛ كما أنني لم أعتد تناول الطعام في وقت متأخر .

• مازن – قولي له بنفسك هذا الكلام ؛ لأنه لن يرضى بتلك الأعذار .. هيا يا عزيزتي لا تكوني سخيفة .

على رأس مائدة الطعام جلس الطبيب ذا الأربعين ربيعاً وعلى جانبيه جلسا "مازن" و "بهاء" الذي أخذ يرمق الفتاة بنظرات مثيرة للريبة على عكس أخاه الكهل الذي بدا لطيفاً يحاول أن يتجاذب أطراف الحديث مع "مارجريت" ؛ سألها عن عمرها فأجابت بأنها جاوزت العشرين من عمرها ببضعة أشهر ، ثم تطرق إلى السؤال عن دراستها فكانت تجيبه باقتضاب بأنها تدرس الطب، وهي تحاول أن تتفادى التورط في مزيد من الأحاديث ؛ فهي لم تعتد على كثرة الكلام ربما لأنه لم يكن لديها طيلة سنوات ثمة من تتحدث إليه بعد رحيل صديقها وأمه عن البلاد .. اعتادت على أن تهمس بأسرارها إلى مرآتها وتبوح بها لأوراقها التي ينتهي بها الحال دوماً ممزقة وملقاة في سلة المهملات !!.

• الخروج من الجســـد أو الأوبي (OBE) أو الإســـقاط النجمي " Astral Projection أو AP ": هو عيش الواقع، ولكن بجســـم أثيري في محيط أثيري يســمى العالم الأثيري، ويضــم التجارب القريبة من الموت والحلم الواعي لكون الأحلام نتيجــة خروج الروح أثنــاء النوم.

• التواجد المزدوج: ظاهرة تطلق على تواجد شيء ما (إنسان أو جماد أو غير ذلك) في مكانين مختلفين بنفس الوقت وقد ادعى كثيرون القدرة على التواجد المزدوج منهم:

الساحر بينتي Pinetti الذي أذهل العالم في أواخر القرن الـــ١٨، الوسيط الروحاني " لويس روجرز" في ثلاثينيات القرن الماضي.

***

لم يعكر صـــفوها ســـوى نظرات "بهاء" النارية التي يصـــوبها نحوها وتعليقاته الساخرة التي يطلقها بين آن وآخر ..

في النهاية لم تتحمل المزيد من مضايقاته فثارت في وجهه قائلة :-

" لقد عشت في هذا القصر طيلة حياتي وإن كنت تحسب أنك بحركاتك الصـبيانية تلك سـتتمكن من إخراجي منه فأنت واهم .. أنا أيضـاً لي نصـيب فيه . وإن كان هناك من يتوجب عليه الرحيل فهو أنت وليس

أنا .. ولا تتظاهر بأنك آســـف على وفاة عمك فأنت لم تأتي لزيارته منذ عقد من الزمن .. ولا تحاول إقناعي بأنك كنت تحب ذلك الوغد الذي كرهه الجميع .. وأنك لم تفقد صــوابك من الفرح حين علمت أنه رحل إلى الأبد لكي ترث وأخاك كل أمواله الطائلة ."

وقف الطبيب وابنه المتبنى مشـــدوهان لا ينطقان وهما يريان تلك الســـهام الحارقة التي وجهتها الفتاة نحو " بهاء" الذي اكتفى فقط بابتســـامة ســـاخرة أثارت جنونها ؛ فعادت أدراجها حيث تقع غرفتها وهي تتوعده بصـــوت مرتفع ثم تصـــك الباب بقوة تهتز لها جدران القصر .

لم يكن يقصـــد إثارة جنونها بابتســـامته تلك .. كان يفكر في أنها مخطئة ؛ فنظراته تلك التي كان يوجهها نحوها سببها شكوكه نحوها والتي زادها ما سمعه ورآه بعينه صباح اليوم برفقة صديقه "هاني" ..

كانت روائح الموت العفنة تفوح في أرجاء الغرفة الحزينة ذات الجدران الكئيبة فتثير قشعريرة في نفس " بهاء" الذي حاول أن يبدو متماسكاً وهو يخطو برفقة صـــديقه "هاني" والطبيب الشـــرعي – الذي يتلفت حوله خوفاً من أن ينكشف أمرهم – نحو الثلاجة التي يرقد فيها عمه القتيل ..

شعور بالرهبة وشيء من الخوف صاحبهما إحساساً قوياً بالحماسة غمره من رأسه حتى أخمص قدميه ..

إنها المرة الأولى التي يحقق فيها في جريمة قتل ..

على الرغم من حماسته شعر أيضًا بشعور مخزي بالخجل يخالج حماسته ..

أكثر من عشر سنوات مضت لم يزر خلالها عمه قط .. ربما لانشغاله بدراسته ثم بعمله .. ربما أيضاً لأنه كان يخشى في قرارة نفسه الاقتراب من ذلك المكان ؛ فبعد موت زوجة عمه فيه منتحرة – كما قالت الشرطة – تناثرت الشائعات حول ذلك المنزل وأخذ الناس يروون حوله أساطير من نسج الخيال ، وشجعهم على ذلك أسواره العالية وأشجاره الكثيفة التي تحجب عنهم ما يدور فيه ؛ وكأن لسكان ذلك القصر عالم آخر غير بني البشر !! .

حتى "رمزي" كان نادراً ما يغادر القصر إلاّ تحت أستار الظلام ووسط حراسة من رجاله ؛ بينما يبقى متخفياً وراء الزجاج الأسود لسيارته "الچاجوار" القاتمة السواد .

كانت حياة عمه مثيرة للشكوك تحيط بها هالة مخيفة من الغموض ، وعندما كانت زوجته على قيد الحياة لم يكن من الصعب على "هاني" أن يستشف حزنها الدفين ، لكنه لم يستطع إيجاد تفسير لهذا الحزن

؛ فهي تحيا في قصـــر مليء بالخدم تحيطه حدائق أشـــبه بالأحراش فيها كل ما لذ وطاب من الثمر والفواكه وأجمل وأندر الزهور ؛ حيث تقضي معظم وقتها في البستنة وتنسيق الزهور ..

فسّـــر ألمها بأن وراءه عدم حصـــولها على أبناء رغم أن زيجتها اســـتمرت لســـنوات ؛ لكن مجيء "مارجريت" إلى هذا القصـــر وهي رضـيعة وتكفل عمتها بتربيتها وكأنها ابنة لها كان كفيلاً بأن ينسـيها عقمها ؛ لكن حزنها لم يمحى قط بل كانت فقط تحاول أن تواريه خلف ابتسامتها العذبة وزينتها الرقيقة ..

هو يعرف "مارجريت" جيداً لكنها لا تذكره .. رآها عدة مرات حين كانت طفلة صـــغيرة ؛ ولأن عقداً من الزمن قد مر على آخر مرة وقعت فيها عيناه عليها تفاجأ كثيراً حين رآها على مثل هذه الهيئة ..

كان في قرارة نفســـه يحقد عليها لأنها لا تنتمي لعائلته ومع ذلك تحيا في نعيم عمه وترتاد مدرســة دولية يدرس فيها أثرياء القوم من العرب والأجانب والصفوة الذين يعيشون في مصر .

بينما عليه أن يرتاد مدرســـة حكومية يعاني فيها من قســـوة معلميه الذين يكيلون له الإهانات ويضــربونه بشــكل شــبه يومي حتى تتورم يداه الصغيرتان !! .

وحينما يرى الطفلة "مارجريت" ذات الشعر الأسود المسترسل المصفف بعناية والبشرة البيضاء الصافية تركب سيارة من طراز "چاجوار" يقودها سائق هندي يصطحبها إلى المدرسة ويقلها إلى المنزل عند انتهاء الدوام المدرسي .. يتزايد حقده نحوها خاصة كلما اضطر إلى السير على الأقدام حيث مدرسته القديمة وخاصة في نهاية كل شهر حين لا تتوفر له أجرة سيارة الميكروباص !!.

على الرغم من اختلاف ماضيهما إلاّ أن هناك قاسماً مشتركاً بينهما هو أن كلاهما يتيم الأب .

لكن " بهاء" يتساءل دوماً لمَ لمْ يكن لأباه مثل ما لعمه من المال والجاه ؟! ..

ولماذا يتوجب عليه أن ينتظر وأخاه ما يلقيه عمهما لأمهما من نقود لا تكاد تكفيهم في أول كل شهر ؟! ..

لماذا لم يؤمّن لهما أبوهما حياة رغدة كتلك التي أمّنها والد "مارجريت" لها بعد وفاته ؟! ..

كل هذه الأسباب كانت كفيلة بأن تزرع بذور الحقد بداخله تجاه "مارجريت" ؛ ولأنه لم يكن يعلم بحقيقة ما جري في ماضيها ، فلو علم ما لاقته الفتاة من أهوال لحمد الله ربه على ما هو فيه من فقر وبؤس .

وعندما لاقى "مارجريت" لأول مرة بعد وفاة عمه كان يحسب أنها ليس لها نصيب في ذلك القصر الذي جهل حقيقة كونه كان ملكاً لعمتها في الأساس قبل يرث عمه معظمه ؛ لذا منّى نفسه برؤيتها ضعيفة خاضعة خالية من غطرستها التي كانت تمنعها من اللعب معه في الماضي – هكذا فسّر امتناعها عن اللهو كبقية الأطفال – .. ربما ستتوسل له أيضاً ليبقيها في ذلك القصر !! ..

سيحصل هو وأخاه على كل شيء وسيعوضان تلك السنوات العجاف .. إنه حقهما الشرعي وما هي إلاّ غريبة عن ذلك المكان ..

هو لا يحلم بطردها من المكان ربما سيبقيها في القصر ليتمتع بإذلالها .. لكنها أجمل بكثير من أن يجعلها خادمة .. لعله سيتخذها عشيقة له ليفاخر أصدقاءه بجمالها الأخاذ .. هل يعقل أن يفكر في الزواج منها ؟ .. لكنها تبدو له مخيفة وغامضة ولا يعقل أن يجعلها أماً لأطفاله .. فهو يراها جسد امرأة باعت روحها للشيطان وربما تتخذ الأرواح الشريرة من جسدها مسكناً !! .. قد يستيقظ يوماً ليجدها تستل سكيناً وتغرسه في قلبه ثم تقدمه قرباناً ضمن طقوسها الشيطانية !! ..

لكن شيئاً من أمنياته الصبيانية تلك لم يتحقق وتبددت كل أحلامه حين علم أن "مارجريت" لها حصة في ذلك القصر ؛ لكنها لا يحق لها

التصـــرف في ممتلكاها حتى تبلغ الســـن القانوني الذي يســـمح لها بذلك...

ببطء يفتح الطبيب الكهل باب الثلاجة ليخرج الجثة بحذر بينما كانت دقات قلب "بهاء " تتســـارع في ذلك الوقت حتى بدت أشـــبه بطبول الحرب ..

حين وقعت عيناه على جثمان عمه أطلق شـــهقة عالية وقد اتســـعت حدقتاه ووقف جامداً في مكانه بلا حراك ..

لم يسـبق أن رأى ثلاثتهم منظراً مشـابهاً .. فالطبيب الذي قضـي أكثر من عشـرين عاماً من عمره عمل خلالها بتلك المشـرحة رأى أثناءها مئات الجثث لم يســتطع أن يفســر ســبب تلك الزرقة المخيفة التي اعتلت جثة الرجل فور العثور عليها على الرغم من أن رجال الشـرطة قد اكتشفوا الجثة بعد مرور أقل من ساعة على لحظة الوفاة !!.

كان من المنطقي ألاّ تصـاب الجثة بالتصـلب الشـديد وألاّ يتغير لونها في ذلك الوقت القصير !! ..

بدا المشـــهد مروعاً أكثر من أي شـــيء رآه في حياته ؛ فالفزع يبدو جلياً على ملامح القتيل .. حدقتاه متســـعتان .. عيناه مذعورتان .. وكأنه رأى الجحيم بعينيه !! .

حين وجدوه كان فاغر الفم، الذي تصلب كقطعة من الحديد .. وأغرب ما في الأمر أن شعره بالكامل قد تحول إلى الشيب رغم أنه حين كان لا يزال على قيد الحياة لم يكن لديه سوى بضع شعرات بيضاء اللون تتناثر في فروة رأسه !!..

وما أكد للشـــرطة بأن الأمر لم يكن محض انتحار بل هي جريمة قتل متعمدة وجود رموز وكلمات لإحدى اللغات القديمة كتبت حرقاً على ظهر القتيل ؛ لكنهم لم يستطيعوا بعد أن يجدوا تفسيراً لتلك الحروف .

تملك "بهاء " شعور بالغثيان وسرت قشعريرة باردة في أسفل ظهره وامتدت إلى سائر أوصاله ..أسرع مهرولاً إلى الخارج مجاهداً ليمنع نفسه من التقيؤ .

لحق به صـــديقه "هاني " الذي تملكه القلق على صـــاحبه فقال له متسائلاً :-

• هل أنت بخير ؟!

• بهاء – يا إلهي !! .. لا أصـــدق عيناي !! .. أســـرع لنغادر ذلك المكان .. يبدو أن الكوابيس ستلازمنا لأسابيع .

الفصل الرابع

"الأرواح الغاضبة"

الماضـــي يقتلها يوماً بعد يوم .. تتمنى لو أنها تمحوه وتتخلص منه نهائياً وإلى الأبد ؛ لكنه بات جزءاً منها وأخذ ينمو شـيئاً فشـيئاً حتى صار كالشجرة العجوز التي يصعب اقتلاعها ..

عودة "مازن" من جديد أيقظت في وجدانها سيمفونية الشجن القديمة التي أعادت آلام وكوابيس الماضي إلى الحياة ..

ضـــحايا "رمزي" الذين قتلهم رجاله أو التهمتهم كلابه يعودون للحياة من جديد ليطاردونها .. إنهم يســـتغيثون بها تارة ويطبقون بأيديهم المتحللة على رقبتها ليخنقونها وهم ينعتونها بالســـاقطة ويتهمونها بأنها السبب في موتهم لأنها لم تحاول إنقاذهم تارة أخرى !! ..

لا تدري "مارجريت" حقيقة إذا كانوا هم من يراها هكذا أم أنه عقلها الباطن الذي يحتقرها ويشعرها بتأنيب الضمير ؟! ..

تتعالى ضـــحكات الجثث المتحللة التي أجهزت عليها كلياً ويخيم في الأرجاء ظلام دامس .. ثم تســـمع ضـــحكات "رمزي" تدوي كالرعد وتخترق أذنيها ..

تنهض من ســـباتها فزعة .. تلهث وصـــدرها يعلو ويهبط .. تدور بعينيها في الغرفة لتتأكد من أن ما رأته كان حلماً وليس حقيقة ..

تنفست الصعداء وأرخت أجفانها .. حاولت أن تعود إلى النوم مجدداً ولكن بلا جدوى .

داهمها شعور بالعطش ؛ فتسللت خارج الغرفة وخطت نحو المطبخ .. تعثرت في إحدى التحف الخزفية ؛ فدوى صوت ارتطامها بالأرض .

لم يكن "بهاء " قد ذهب إلى فراشه بعد حين وصل إلى أسماعه ذلك الصوت .. نهض مسرعاً وهرول تجاه الصوت تاركاً وراءه ملف القضية الذي كان يبحثه ..

وحين رآها توارى خلف الجدار كي يتسنى له مراقبتها من حيث لا تراه .. فضوله دفعه لمعرفة ما الذي تفعله في مثل ذلك الوقت المتأخر من الليل ؟! ..

لم تفعل أي شيء غريب يثير ريبته أو يبعث على الشك حتى الآن ؛ لكن ما استوقفه هو أنها لم تعد إلى غرفتها بعد أن رشفت بضع رشفات من كأس المياه الزجاجية ..

كانت تسير بحذر عبر ردهات القصر حتى خرجت من بابه الخلفي إلى الحديقة وهناك أسرعت الخطى ..

وعلى بعد أمتار منها سار "بهاء " خلفها مراقباً إياها .. ولدهشته وجدها تلج إلى مكان موحش يقع في جانب قصي من الحديقة وقد

أحاطه سياج من أشجار كثيفة وسور حجري عالٍ له بوابة خشبية قديمة .. حينما اقترب أكثر أدرك أنها مقابر العائلة !! .

تعاظمت دهشته وتساءل ما الذي يدفع فتاة عاقلة إلى أن تزور المقابر في جنح الليل وتحت أستار الظلام الموحش بينما يمكنها زيارتها في أي وقت تشاء ؟!! ..

توقف قلبه لثوانٍ عن الخفقان وكادت روحه أن تهرب من جسده حين شعر بيد باردة تطبق على كتفه ..

أحس بالأرض تدور تحت قدميه حين قفزت إلى عقله فكرة أن يكون الموتى قد استيقظوا من رقودهم وعادوا إلى الحياة مجدداً ..

هاهي "مارجريت " جاثية على قدميها أمام القبر لم تبرح مكانها .. فمن يكون إذاً ذاك الذي يمسك بكتفه ؟!! ..

كاد أن يسقط مغشياً عليه ؛ لكنه تمالك نفسه وبصعوبة شديدة أدار رأسه إلى الخلف ليتأكد من صدق ظنونه ، ولدهشته وجده عجوزاً قصير القامة محني الظهر مشعث الشعر .. عيناه غائرتان ووجهه تعلوه خرائط وأخاديد حفرها الدهر بعناية .. تنفس الصعداء حين سأله العجوز هامساً :-

• من أنت ؟ .. وماذا تفعل هنا ؟ .

حوار قصير دار بينهما جعل "بهاء " يشك في قوى الرجل العقلية .. قال لنفسه هذا الرجل إما مجنوناً أو مجنون !! .. ليس هناك احتمال آخر .. إلاّ إذا كانت " مارجريت" هي من دفعته ليقول له ذلك الكلام .. ولكن لماذا ؟! .. ربما لتخيفهم وتجعلهم يغادرون القصر ويرحلون إلى غير رجعة ..

ظل لساعات يراقبها وهو يجاهد النعاس حتى بزغ الفجر والفتاة جالسة أمام أحد القبور ولم تبرح مكانها إلاّ بعدما رأت تباشير الصباح..

حين تسربت أشعة الفجر لتبدد الظلمة عادت "مارجريت" إلى حجرتها وأوصدت الباب خلفها ، وكذلك فعل "بهاء " بعدما انتهى من مراقبتها .. وعلى الرغم من شعوره بالإجهاد والنعاس إلاّ أنه جاهد ليخلد إلى النوم ..

عشرات الأفكار تدور برأسه وتصيبه بصداعٍ يكاد ينسف دماغه .. كلمات العجوز لا تزال عالقة بذهنه ..

" أنجو بنفسك وغادر هذا المكان الملعون .. هذا المكان يعج بالأرواح الغاضبة وإذا تمكنوا منك سيمزقونك إرباً أو يصيبونك بالجنون .. "

حين ذكر "بهاء " أنه ابن شقيق السيد "رمزي" زجره الرجل قائلاً :-

" أخفض صـــوتك .. ســـوف يســـمعونك " ، ثم أخذ يتمتم بكلماته الغامضة !!..

شـعر " بهاء " بقشـعريرة باردة حين فكر في احتمال أن يكون العجوز صادقاً في كلامه ، لكنه سرعان ما أزاح الفكرة من رأسه تماماً ..

عندما ارتقت شـمس الظهيرة منتصـفة السـماء وصـويت نصـالها الملتهبة نحو رؤوس البشـر كانت "مارجريت" في الشـرفة المتسـعة المطلة على حديقة القصـر تجلس على كرسـي مصـنوع من خشـب البامبو تحدق في الأفق بلا غاية بعينان كسـاهما الاحمرار وأحاط بهما سياج داكن اللون يبدو كنشاز وسط بشرة وجهها البيضاء التي بدأت تميل إلى صـــفرة المرض ، وقد حجبت وجهها ســـحابة من الدخان المنبعث من سيجارتها المحترقة ، وجعلها شرودها تنسى قدح القهوة الذي تمســـك به بأناملها الدقيقة حتى فقد دفئه وحرارته المســـتحبة وبات بارداً وبلا مذاق أو حياة مثله مثل كل شيء في حياتها ..

لم تستطع أن تمنع نفسـها من التفكير فيما حدث ليلة مقتل "رمزي" .. كلمـا آوت إلى وحدتهـا وانزوت في كهف صـــمتهـا المعذب تراودها الذكريات مجدداً ..

قفزت إلى مخيلتها فجأة صـورة المرآة في غرفتها بالفندق وقد خضـبت بدماء طازجة شكلت عبارة :

" الليلة سينتهي كل شيء "

ثم سرعان ما اختفت وكأنها لم تكن هنالك يوماً وتركتها وحيدة وسط الجدران الباردة تغرقها عشرات الأفكار ..

صوت سعال مصطنع انتزعها من بين ذكرياتها العنيدة التي تلح عليها دائماً وكأنها تؤنبها .. التفتت لترى صاحب الصوت فرأت الدكتور "نزار" ماثلاً أمامها .. التقت أعينهما فبادرها بابتسامةٍ صافية وحياها قائلاً :-

• صباح الخير

ببرود ردت التحية وعادت إلى صمتها المتهرئ .. قطب الرجل حاجبيه وعبث قليلاً حين وقعت عيناه على ما تحمله يدها ثم قال :-

• هل تناولتِ فطورك قبل أن تحتسي تلك السموم ؟! ..

• مارجريت – لا شهية لديّ .

• نزار – كما توقعت .. ألا تعرفين أن ما تفعلينه يقتلك يوماً بعد يوم ؟! .. سوف تتسببين لنفسك بقرحة المعدة وأمراض الجهاز التنفسي .. ثم إنكِ لا تزالين صغيرة على تدخين السجائر !! .. ألا تعرفين مخاطر ذلك ؟! .. أستغرب كيف كان عمي يسمح لكِ بمثل هذه العادات السيئة !! .

• مارجريت تبتسم ابتسامة تحمل من المرارة أكثر من ما تحمل من السخرية وتقول بتبرم :-

عمك لم يكن يكترث إلاّ لنفسه ولمصالحه .

• نزار بينما يربّت على كتفها بحنان أبوي – لا بأس يا بنيتي .. لكن عديني بأنكِ ستقلعين عن عادة التدخين واحتساء القهوة على الريق..

• مارجريت بعدم اكتراث – حسناً .

• نزار – هيا قولي لي أعدك بذلك ..

• مارجريت وقد ارتفعا حاجباها بفعل الدهشة – هل أنت فعلاً تهتم لأمري أم أنك تخطط لأمرٍ ما ؟!.

• نزار بملامح منزعجة ومندهشة في آن واحد – ماذا ؟! .. ما هذا الجنون يا ابنتي ؟! .. لماذا عساي أن أخطط لكي أؤذيكِ وأنا بالكاد أعرفك ؟! .. يبدو أنكِ تعانين من أزمة ثقة في الآخرين ..

• مارجريت وقد تملكها ارتباك لم تشعر بمثله من قبل فحاولت إخفاءه بالهجوم على نزار قائلة :-

لا تكذب عليّ .. لا تنكر أنك تظنني قاتلة وتريد إخراجي من هذا القصر .. ربما تفكر في استدراجي وتخديري لأوقع لكم على تنازل عن حصتي في القصر وكل أموالي ..

• نزار – ما هذا الهراء ؟! .. سبق أن قلت لكِ أن هذا القصر يمكن أن يسعنا جميعاً .. كيف لي أن أخرجكِ من هنا وأنتي وصية زوجة عمي رحمها الله ؟ .. يستحيل أن أهضم حق أحد ولا سيما إن كانت فتاة يتيمة لا أحد لها في هذا العالم .

• مارجريت – إذاً هذا هو رأيك فيّ ؟! .. فتاة ضعيفة ومثيرة للشفقة ومريضة نفسياً تتوهم أشياء لا وجود لها !!..

• نزار – لا بل على العكس من ذلك أراكِ امرأة ذكية وقوية لأنكِ تحملتِ كل ما عانيته من فقد وتجاوزتِ ذلك بنجاحكِ الدراسي .

• مارجريت وقد تملكتها الحيرة ولم تشأ أن تخسر معركتها الكلامية معه – لا بأس فلقد عرفت نواياك الحقيقية .. لا شك في أنك تحلم بتحقيق حلم عمك القديم الذي عجز عن تحقيقه ، ولكن اطمئن فلن أسمح لك بذلك أبداً.

• نزار وقد ازداد حيرة على حيرته فأراد مجادلتها حتى يفهم السبب الحقيقي وراء انزعاجها :-

عن أي حلمٍ تتحدثين ؟! ..

• مارجريت – أنت تحسبني عاهرة يسهل شراءها بمعسول الكلام .. وبينما تتظاهر بأنني مثل ابنة لك تستمتع بملامستك لي ..

ود في ذلك الوقت لو أنه صفعها بقوة على وجهها تجعلها تفيق من أوهامها الخرافية ؛ لكنه استطاع بالكاد أن يمنع نفسه من الانفجار في وجهها وتلقينها درساً في احترام من هم أكبر منها سناً ؛ ومع ذلك لم يتمكن من كبح جماح حمرة الغضب التي كست ملامح وجهه بينما قال لها :

• ألمّ أقل لكِ بأنكِ تعانين من أزمة ثقة في الناس ؟! .. أنتي بحاجة لمساعدة طبية لتتجاوزي تلك التجارب السيئة التي مررتِ بها .. صحيح أنني لا أعرف ما أصابكِ لكنني أكيد مما أقول .. هل فعل عمي شيء لإيذائكِ أم أنكِ تتهمينه ظلماً كما تتهمينني ؟! ..

• مارجريت بغضب شيطاني – كيف تجرؤ ؟!! ..

تطيح بفنجان القهوة بعيداً ليتحطم إلى أشلاء ويخلّف وراءه ساحة معركة ملطخة بالسائل البني المتناثر .. تخطو خطواتٍ واسعة مخلّفة وراءها الرجل الغارق في دهشته حتى أخمص قدميه .. تتمتم بكلماتٍ غير مفهومة قطعها لهاثها إلى أجزاء ليست ذات معنى ؛ وقد أدركت لتوها أن حكمة هذا الرجل اخترقت كل أسوارها الجليدية ونفذت من

خلال مسام جلدها لتستشف بعض ما تدفنه هي في صدرها ولا تحب أن يطّلع عليه أحد ..

الرجل واجهها بحقيقة نفسها .. إنها تخاف الآخرين رغم كل ما تتظاهر به من قوة .. لا تستطيع أن تثق بأي شخصٍ كان فذلك الشخص المدعو "رمزي " قد حطمها تماماً ..

***

كان "مازن" قد استيقظ لتوه فزعاً من نومه حين داهمت أذنيه أصوات شجار "مارجريت " مع والده بالتبني ..

هرع إلى الشرفة ليرى أمامه آثار تحطم الفنجان الذي خلّف وراءه فوضى عارمة ..

التفت حوله باحثاً عن والده ، وعندما دلف إلى خارج الشرفة وجده يأتي وبرفقته خادمة فلبينية في منتصف عمرها وتحمل في يدها منشفة نظيفة ..

هرع الفتى إليه ليسأله عن ما حدث وقبل أن ينبس ببنت شفة دوّى في الأنحاء صوت إطارات سيارة "مارجريت " الغاضبة التي خلّفت وراءها غباراً كثيفاً وسرعان ما اختفت عن الأنظار فارةً بعيداً عن أسوار القصر ..

نظر "مازن" إلى " نزار" متسائلاً :-

ما بالها ؟! .. ولماذا تشاجرتما ؟! .

• نزار – كل هذا لأنني طلب إليها أن تتناول الفطور قبل احتساء القهوة !!.

• مازن – "مارجريت " تغيرت كثيراً عما كانت عليه في السابق .. هل تعلم يا أبي أننا كنا صديقان حميمان في طفولتنا ؟.

• نزار – حقا !! .. هلاّ أخبرتني إذاً كل ما تعرفه عن تلك الفتاة .. أنا واثق بأنها عانت الكثير في حياتها وإلاّ ما كانت كما هي الآن ..

أخذت تسير بسيارتها في شوارع المدينة على غير هدى .. تقود بسرعة فائقة لا تتناسب مع ساعات الظهيرة التي تكتظ فيها تلك الشوارع بالمارة ..

صوت المسجل تنعبث منه أغنيات غربية صاخبة وموسيقى الروك تزلزل السيارة ..

تشعل سيجارة جديدة وتنظر إلى الساعة المثبتة إلى جوار المقود .. أخيرًا تحسم أمرها وتتجه إلى جامعتها .

***

في عصر ذلك اليوم التقى "بهاء" بصديقه "هاني" في منزله الذي يقع بضاحية المعادى ..

حكى لـه "بهاء" عما رآه وســـمعه في ليلـة أمس التي لم تزل ذكراها تؤرقه حتى الآن ..

التزم "هاني" الصمت حتى انتهى صديقه من سرد ما لديه ثم قال له :

– ما الذي يجعلك أكيداً من أن الرجل مجنون ؟

• بهاء – ما كان يهذي به من كلام غريب ..

• هاني – ولكن القضـــية بأكملها غريبة وأغرب ما فيها الحالة التي وجدنا عليها جثة عمك ؛ لذا أرجح أن وراء تلك الجريمة شـــيئاً خارقاً للطبيعة كالسحر الأسود أو شيء من ذلك القبيل .

شـرد "بهاء " للحظات حين سـمع كلمة السـحر فقد طفت إلى ذاكرته ذكرى قديمة غلّفها غبار الســنون .. تذكر أنه كان في زيارة إلى بيت عمه ، وبينما كان يتنصت على حوار دار بين زوجة عمه وابنة أخيها "مارجريت " التي كانت تبكي بمرارة وتقول لها :

• عمتي.. الأولاد في المدرسـة يخافون مني وينعتونني بالسـاحرة منذ يوم الحادث ..

لم يعرف "بهاء " عن أي حادثة كانتا تتحدثان ؛ لكنه تذكر أن العمة قد حذرتها في ذلك الوقت من أن تبوح لأي شخصٍ بما جرى .

***

لم يتوقف "بهاء" عن التفكير في "مارجريت " وكلام العجوز له بالأمس وما دار من حديث بينه وبين صديقه أثناء قيادته لسيارته في طريق العودة إلى القصر .. وعند وصوله أخبره "مازن" بأمر ذلك الشجار الذي وقع بين أباه والفتاة صباح اليوم وكيف أنها غادرت المنزل وهي تستشيط غيظاً ..

حسم أمره وقرر التسلل إلى غرفتها لعلّه يجد فيها دليلاً يشفي صدره مما هو فيه من شكوك ..

حين دلف "بهاء" إلى غرفة "مارجريت " متسللاً على أطراف أصابع قدميه يتلفت حوله كلص مبتدئ تملكه شعور غريب بأن أحداً يراقبه ويرصد حركته منذ ولوجه إلى الغرفة على الرغم من أنه قد أوصد باب الغرفة جيداً بعدما تأكد من أن أحداً لم يراه !! ..

حاول أن يطمئن نفسه محدّثا إياهاً :

"لا شـك أن السـبب هو الخوف والشـعور بالذنب .. فهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أتسـلل فيها إلى غرفة فتاة .. سـتكون كارثة حقيقية إذا رآني أحد هنا .. "

وعلى الرغم من محاولاته تلك التي باءت بالفشل الذريع انتابه شعور قوي بالكآبة وأحس بسحابة حزن شديد تجثم على صدره بقوة أثارت دهشته كلما خطا خطوة داخل الحجرة !!..

كانت الغرفة واسـعة ذات طلاء شـاحب اللون يميل نحو الرمادي ، وعلى جدرانها علقت صـور ضـخمة ذات طراز أوروبي قديم لحيوانات أسطورية وقطط وحيات ومخلوقات خرافية شيطانية .. وهناك صورة لزوجة عمه الراحلة تتوسط الجدار ..

وقد أسـدلت سـتائر سـوداء اللون غلفها الغبار على نوافذ وشـرفات الغرفة الواسعة ..

تقع عيناه على بقع الشمع المنصـهر حول الشموع الموضوعة على منضدة صغيرة في ركن من أركان الحجرة ..

فجأة يلمح خيالاً شبحياً لشـيء ما قد انعكس على زجاج المرآة ولكنه سرعان ما يختفي !! ..

يتسـمّر "بهاء" في موضـعه للحظات .. قلبه يخفق بشـدة .. لم يكن أكيداً من حقيقة ذلك الشيء الذي رآه؛ لكنه على الأرجح ظل امرأة!!..

ما لمحه كان أشـبه ما يكون بخصـلات من الشـعر الأسـود الطويل تحجب وجه كيان ما انعكسـت صـورته على تلك المرآة الزجاجية أو ربما كان على وشك الخروج منها !!..

ارتعدت فرائس وكيل النيابة الشاب حين فكر في الأمر على ذلك النحو .. وتضاعف في نفسه الشعور بالكآبة عندما تسلل إلى أذنيه صوت يشبه الأنين الممتزج بلحنٍ لنايٍ حزين ..

أخذ يبحث عن مصـدر الصـوت وسـاقاه غير قادرتان على حمله .. لكنه أبداً لم يعثر عليه وكأنه جاء من العدم !!..

على مكتب خشـبي رأى أوراقاً متناثرة وقد كتبت عليها رموز وحروف غريبة وكأنها إحدى اللغات التي اندثرت منذ قرون .. يخرج مفكرة من جيبه ويبدأ في تدوين بعضها ..

ولدهشته يشعر بشيء ما يتحسس قدميه !!..

كاد قلبه يتوقف عن الخفقان إلى الأبد هذه المرة ..

ببطء يحرك عيناه ..

يلمح كتلة من الفراء الأسود ..

أخذ يحدق فيها ليكتشف أن ذلك الشيء ما هو إلاّ قط أسود اللون كثيف الشعر !! .. كانتا عيناه الغاضبتان تلمعان بشدة في ضوء الغرفة الشحيح ..

تذكر كل أساطير وقصص جدته عن القطط السوداء المسكونة بالأرواح الشريرة وما سمعه من أصوات غريبة وذلك الشبح الذي ظهر في المرآة فآثر أن يطلق ساقيه للريح وأن يفر خارجاً من الغرفة!!..

***

الفصل الخامس

"سام"

كانت تخطو خطوات واســـعة في الردهة الطويلة الخالية من الطلاب بحـذائهـا ذا الكعب المرتفع الـذي خلّف وراءه ســـيمفونيـة أنثويـة صاخبة..

تتجـه يميناً نحو مرر آخر يؤدي إلى قـاعـة المحـاضـــرات .. يرتطم جسدها بشاب أشقر الشعر ذا عينان زرقاوان وملامح غربية ..

يسقط الدفتر الذي كانت تطبق عليه بكلتا يديها أرضاً .. تشق شـهقة حـادة وتغيب عن عـالمنـا لثوانٍ معدودات كـانـت خلالهـا "مـارجريـت " هائمة في عالم آخر ..

تلاحقت أمام عينيها مشـــاهد عديدة تفوح منها روائح الموت والخوف والألم ..

رجل وامرأة شـقراء يتشـاجران بقسـوة .. الرجل يصـفعها بقوة والمرأة تتوسـل .. طفل صـغير يشـبه الشـاب الواقف أمامها الآن يراقبهما .. يرتعد خوفاً ودموع وجلة تسيل على وجنتيه ..

بقع من الـدم المتنـاثرة حول جثمـان المرأة الشـــقراء .. الطفـل يبكي بحرقة .. رجال الشـرطة منتشـرون في أنحاء المنزل .. المســعفون يحملونها في سيارة الإسعاف ..

تابوت خشبي مفتوح .. نساء شقراوات يبكين .. الفتى الصغير واقفاً كصنم أمام التابوت الذي ترقد فيه أمه ..

أخذ الشاب يعتذر لها وهو يتصبب عرق الارتباك وقد كست وجهه حمرة الخجل ؛ لكنها لم تكن قد سمعت أو رأت شيئاً مما قال أو فعل..

حين عادت "مارجريت " إلى وعيها بعدما انصرفت عنها تلك الرؤى الغريبة كان صدرها يعلو ويهبط بقوة وأخذت تحدق في الشاب الماثل أمامها وهي تكاد لا تصدق شيئاً مما رأت ..

كان هذا هو "سام" أو "سامي" كما يدعوه بعض الأصدقاء .. شاب أمريكي الأم عاش بضع سنوات في مسقط رأس والدته ؛ لكنه سافر مع أباه إلى مصر ليعيشا هنا في موطن والده منذ أكثر من عقد من الزمن ..

ما أدهش "مارجريت" أن "سام" ذلك الفتى الرقيق الأقرب إلى شيم الفتيات بخجله وجبنه الشديد اللذان عرف بهما منذ طفولته حين كان زميلها في المدرسة وبذات صفها ثم ارتاد بعد تخرجه الجامعة نفسها التي ترتادها، لم يبدو عليه يوماً أنه يخفي الكثير من الأسرار المؤلمة بين طيات صدره ..

لم تكن تعره اهتماماً كبيراً فلقد كان في نظرها محض ثرى مدلل لا يصلح لفعل شيء سوى العزف على آلة البيانو فهذا هو الشيء الوحيد الذي يجيده ويكن له عشقاً شديداً ..

لطالما قضت "مارجريت" أوقات من طفولتها بالمدرسة تعزف على آلة الناي ألحاناً شجية في غرفة الموسيقى برفقة "سام" عازف البيانو وصديقها "مازن" ذا الموهبة الغنائية الفذة .. وخلال تلك الأوقات لا تذكر هي أن ثمة حوارات مطولة كانت قد جرت بينها وبين الفتى الأشقر الخجول ؛ خاصة وأنها كانت بطبيعتها نادراً ما تتحدث إلى أحد ..

بارتباك قال لها :-

• مرحباً .. مارجريت .. كيف حالك ؟.

ردت تحيته وهي ترمقه بنظرة مشفقة وعلى وجهها شبح ابتسامة ثم سرعان ما تركته ومضت في طريقها وهي تتساءل حول ماضي ذلك الفتى !!..

***

مضى "سام" إلى رفيقيه سعيداً منتشياً يختال كذكر طاووس فاتن في موسم التزاوج .. يشعر وكأنه ملك متوج في دنيا العاشقين أو أحد آلهة العشق اليونانية !!..

أخذ يقص عليهما أحداث تلك الصدفة الرائعة التي صنعها القدر حين جعله يصطدم بمحبوبته السرية "مارجريت" التي ظل يعشقها في صمت لسنوات طويلة ..

قال لهما بمشاعر صادقة وبتأثر بالغ :

• آه لو كنتما رأيتماها حين جرى ما جرى .. كانت تلهث وضربات قلبها تتعالى .. كان من الواضح أنها تشعر بالارتباك .. إنها المرة الأولى التي أراها فيها على هذه الحال .. ألا تعد تلك علامة على أنها تبادلني الشعور نفسه ؟ .

بدا الفتى ذا العشرون ربيعاً في ذلك الوقت وكأنه يتحدث إلى نفسه فحسب .. فصديقيه "شهاب" و"آسر" كانا يبدوان وكأنهما في عالم آخر ؛ لكن سرعان ما بدا الامتعاض على وجه "شهاب" ذا البشرة السمراء الشبيهة ببشرة الهنود وعيناه الواسعتان العسليتان والملامح الرجولية الرصينة والذي أخذ يرمقه من آن لآخر بنظرات استنكار ..

أما "آسر" فلم يصدر عنه رد فعل يذكر .. كان يبدو فتى حالماً ذا بشرة وردية وعيون طفولية بريئة تمتلئ بحزن عميق .. دائماً ما

يتطلع إلى الأفق وكأنه يخاطب السماء ليواري دمعة تجاهد لتنزلق رغماً عنه ..

أخيراً خرج "شهاب" عن صمته وقال بغضب وقور :

• ألن تكف عن أوهامك تلك ؟!

• سام – إنها ليست أوهاماً .. إنها مشاعري .. لماذا لا تكترث لمشاعري ؟! .. أنت تعلم جيداً أنني لطالما حملت مشاعر قوية تجاه تلك الفتاة ..

• شهاب وقد ازدادت حدة غضبه :-

يالك من فتى مدلل ومستهتر !! .. ألا تعلم ماذا عساها أن تكون عاقبة تصرفاتك الهوجاء ؟! .. إنها ليست لك وليس من حقك مغازلتها أو حتى مجرد الاقتراب منها .. ألا تعرف أن عشيقها "جاسر" ربما يقتلك ؟ .. نحن لا يمكننا الوقوف في وجه ذلك الرجل .. إنه خطير للغاية وأخطر ما فيه جنونه وعلاقاته بالمافيا ورجال العصابات.

• سام – وما الذي فعلته أنا خطأً ؟! .. قلت لكما إنني اصطدمت بها صدفةً ثم ألقيت عليها التحية وسألتها عن أحوالها !!.

• شهاب – لا أعرف ماذا يعجبك في تلك الساحرة الروسية ؟! .. إنها باردة مثل ثلوج سيبريا .. حتى أنها تبدو مثل مصاصي الدماء .

• سام غاضباً – لا أسمح لك بالحديث عن محبوبتي بهذه الطريقة ..

• شهاب – ماذا ؟! .. لا تسمح .. وحين تتورط في شجار مع حبيبها من عساه سيقوم بحمايتك غيري ويتلقى الضربات عوضاً عنك تماماً مثل كل مرة تتعرض فيها للأذى أيها الثري المدلل ؟!..

• ســام – واجبك يحتم عليك أن تقف إلى جانب صــديقك وتدعمه .. كما أنني لم أطلب إليك أن تفعل ذلك ..

• شهاب – ليس خطأي أن لي صديقاً جباناً يشبه الفتيات ..

"آســر" يمســك بالكأس الزجاجية الموضــوعة أمامه على المنضــدة ويقذفها بعيداً لتتحول إلى حطام .. يسود سكوت مخيف قبل أن يقول بغضب عارم :

• توقفا أنتما الإثنان .. هذا يكفى .. أخرجا من هنا ودعاني بمفردي.

• سام – سوف أذهب من هنا .. أتعلمان أمراً سوف أعود إلى أمريكا لأنه لا أصدقاء لي هنا .. كنت أحسبكما صديقاي !!.

فور أن غادر "ســام" منزل صــديقه "آســر" الذي كان يلهث وأنفاســه تتلاحق بشــدة هرع إليه صــاحبه "شــهاب" محاولاً أن يهدئ من روع صــــديقه المريض وهالـه الإرهاق البادي على وجـه الفتى الـذي كان

صـدره يعلو ويهبط بسـرعة خاطفة .. سـأله "شـهاب" عما إذا كان قد تناول دواءه اليوم لكنه قام بهز رأسه نافياً ..

حاول "شهاب" كبح جماح غضبه بينما يقول له :

• لماذا أصـبحت مسـتهتراً هكذا ؟! .. هيا أسـرع وتناوله .. ألن نذهب اليوم إلى عيادة طبيبك ليقوم بفحصك ؟

• آســر – لا ليس اليوم فأنا مرهق ومنزعج للغاية ولا ينقصــني ذلك الطبيب بعقاقيره وحقنه التي لا تنتهي .

• شــهاب – توقف عن التصــرف كالأطفال .. لا يمكنك التخلف عن مواعيد فحوصـاتك خاصـة وأنت تعرف جيداً كم نعاني للحصـول على موعد عند هذا الطبيب فهو دائم الانشـــغال .. كما أنك على أي حال تبدو لي اليوم بحال مذرية ولابد أن يفحصك الطبيب ..

• آسر – لماذا لا تريد أن تستسلم ؟ .. لن أشفى أبداً يا "شـهاب" .. سوف أموت حتماً عما قريب إذاً دعني أموت في سلام .

• شـهاب – لا تتفوه بالحماقات .. سـوف تشـفى كن واثقاً من ذلك .. لا تتخلى عن الأمل أرجوك ..

• آســر – لا تحاول إقناعي بذلك الكلام الذي كنا نخدع به أنفســنا طيلة تلك الســنوات .. لقد اتخذت قراري وكفى لن أتعاطى ذلك العلاج

بعد اليوم .. إن لم يقتلني المرض فســـوف يفتك بي هو .. لقد تعبت من كل ذلك العذاب.

• شــهاب – يالك من جبان ضــعيف !! .. تتخلى عن حياتك وعن كل شيء فعلناه في تلك السنوات الماضية فقط لأن فتاة تخلت عنك !!..

• آســر غاضــباً – لا دخل لك بذلك الأمر .. حياتي الشــخصــية أمر يخصني أنا وحدي .

"شهاب" يستشيط غضباً ويلكمه على خده الأيمن .. تخيم لحظات من صـمت قاتلة يتبادلان خلالها نظرات جامدة قبل أن تدمع عيني "آسـر" ويبدأ في التحدث كطفل صــغير تلقى لتوه عقاباً قاســياً من أحد أبويه ويقول له :

• أنت تضـــربني لأنك أقوى مني ولأنني مريض .. هيا قل الحقيقة يا "شــهاب" أنا حِملٌ ثقيلٌ عليك .. صـداقتي تعوقك أليس كذلك ؟.. على أي حال قريباً سـأغادر ذلك العالم وأريحك مني .. وإذا أردت أن تتخلى عني هيا افعل ذلك ..

• شـهاب – لم أكن أعلم أنك وغد أناني إلى هذه الدرجة .. قضـيت أنا تلك السـنوات لا أحلم سـوى بشـيء واحد وهو أن أصـير طبيباً لأتمكن من علاجك ولهذا السـبب فقط التحقت بكلية الطب .. لسـت وحدك من كـان يعاني .. أنا أيضًـــا عانيت مثلك تمامًا ولم أحظى بحياة طبيعية

لكي أعتني بك ؛ حتى أنني في الحادية والعشـــرين من عمري ولم يســـبق أن واعدت فتاة قط .. ثم تأتي أنت وتقول لي إن حياتك لا تخصني ؟!! .. افعل ما تريده يا "آسر" فأنت لم تعد طفلاً .

يخرج "شـهاب" من منزل صـديقه والغضـب يتجلى في قسـمات وجهه بعد أن صفق الباب خلفه بقوة .

***

سـيدة مسـنة أحنى المرض كاهلها وحفر الدهر أخاديده على خريطة وجهها ، تجر قدميها نحو غرفة حفيدها "آسر" بعد أن أفزعتها أصوات الشجار الدائر بينه وبين صديقاه .

تدنو منه وهي تقول :-

• هل أنت بخير يا بني ؟ .. هل تشاجرت مع رفاقك ؟

آسر يجفف دموعاً سالت على وجنتيه ويجاهد ليخفي آلامه عن الجدة قائلاً :

• لا تقلقي يا جدتي .. لا شـيء مهم .. إنهما "شـهاب" و"سـامي" لقد تشـاجرا وسـيتصـالحان قريباً .. عودي أنتي إلى فراشـك ولا تجهدي نفسك.

رغم أنها تسكن مع حفيدها بمفردهما في الشقة نفسها – منذ أن فقد والديه في حادث سيارة قبل ثمان سنوات – إلاّ أنها لا تعلم شيئاً عن حياته ولا عن مرضـــه ؛ فهي بالكاد تبرح فراشـــها بعدما تمكنت منها أمراض الشيخوخة .

***

الفصل السادس

"احتضار"

كانت الشمس تحتضر رويداً رويداً حين أوقفت "مارجريت" سيارتها على جانب الطريق بعدما لمحت الفتاة مجموعة من الأطفال يلعبون الحجلى بحبور ؛ وهم يبدون كملائكة صغار يتخفون في هيئات بشرية .

راحت تتأملهم عبر نافذة السيارة قرابة الساعة وعلى وجهها ابتسامة صافية لم تخالجها منذ سنوات .. تمنت لو أنها تستطيع مشاركتهم اللعب .. تذكرت كم كانت طفولتها تعسة إلى أقصى حد !.

كرهها الأطفال وخشوها حتى أنهم نعتوها بالساحرة الشريرة ، وحقد عليها من هم أكبر منها سناً ظناً منهم أن سليلة عائلة ثرية مثلها لا بد وأنها تحيا في نعيم مترف يستحق أن يحسدونها عليه !.

لا زالت تذكر جيداً كيف كانت تسمعهم يهمسون في آذان أبنائهم ويحذرونهم من مصادقتها أو حتى مجرد الاقتراب منها منذ تلك الواقعة الأليمة ..

على عكس الآخرين كانت ترى أشياء لا يرونها .. لقطات من الماضي ومشاهد من المستقبل .. أمور عن أموات عاشوا وانتهوا بنهايات مأساوية .. جرائم حدثت وكوارث ستقع ..

أجراس المدرســـة القديمة ذات الطراز الأوربي تدق معلنة عن انتهاء الدوام المدرسي .. الأطفال يتدافعون خارج الصفوف متجهين إلى فناء المدرسة وآخرون يصعدون على متن حافلاتها .

طفلة صــغيرة ذات شــعر أســود وملامح هادئة وعيون رمادية محبة للحياة تنتظر صـــعود الأولاد المتدافعين إلى الحافلة المدرســـية التي يفترض بها أن تقلهم إلى منازلهم ..

كانت الفتاة هي "مارجريت" التي لم تلبث أن صعدت على متن الحافلة حتى داهمها صداع حاد وتلاحقت أمام عينيها مشاهد مروعة للحافلة وهي تشـتعل .. صـراخ وعويل .. أجسـاد صـغيرة تحترق .. وملامح يكســـوها الذعر .. بكاء أطفال ينادون على أمهاتهم ويســـتغيثون بآبائهم ؛ ولكن بلا جدوى ..

وقبل أن تتحرك الحافلة تقفز "مارجريت" فجأة خارجها كمن لدغته أفعى .. ولم تجدي أيّاً من محاولات المعلمات وسائق الحافلة لإقناعها بالعودة إلى مقعدها ..

كانت الطفلة ذات الأعوام الخمس تبكي بمرارة وهي تهذي بكلمات لم يفهموا منها ســوى أن الحافلة ســتحترق وأن عليهم جميعاً أن يهربوا خارجها .

وحينما يأسوا من إعادتها للحافلة قرروا اصطحابها إلى مكتب مديرة المدرسة لعلها تخبرهم بما يتوجب فعله معها خاصة وأنه قد تسرب الخوف بالفعل لنفوس بعض الصغار الذين تسللت إلى آذانهم كلمات "مارجريت" المخيفة .

ولكن ما إن وصلوا إلى هناك حتى سقطت الطفلة أرضاً مغشياً عليها وهي تمتم بكلمات غير مفهومة كمن به مس من الجن .

أعطت المديرة أوامرها بأن يحضروا الطبيب بسرعة ليفحص الطفلة التي بات جبينها يغلي كالجحيم وقد بدت عليها آثار الحمى ؛ ثم طلبت من سيكرتيرة مكتبها أن تتصل بأسرة "مارجريت" وتطلب منهم أن يحضروا على وجه السرعة ؛ وأصرت السيدة الأربعينية أيضاً على أن تتحرك الحافلة بشكل طبيعي ولا تنتظر رجوع الطفلة المحمومة كي لا يتأخر الصغار عن موعد عودتهم إلى منازل فيقلق ذويهم ..

كانت الحافلة تسير على دربها المعتاد حين ارتطمت بها شاحنة مسرعة فانقلبت رأساً على عقب وأخذت النيران تلتهمها قبل أن يبدأ الناس في التجمع حولها محاولين إخراج الأطفال المذعورين منها قبل أن تنفجر .

سبعة أطفال التهمتهم النيران في ذلك اليوم لا تزال صرخاتهم تلاحق "مارجريت" من آن لآخر في نومها ويقظتها .. وثلاثة آخرين شوهت

الحادثة أجسادهم وتركت ألسنة اللهب عليها آثارًا لم تفلح في محوها السنون .

حين أفاقت "مارجريت" من إغمائها كانت مديرة مدرستها تبكي بهيستريا وهي تصرخ :

• الحافلة احترقت .. الأطفال احترقوا .. انتهى أمر مدرستنا .. لقد انتهى أمري تماماً .

ولم تفلح أياً من محاولات المعلمات الباكيات في تهدئتها فقد كن أكثر منها صدمة .. وفور أن نهضت "مارجريت" من مرقدها حتى صرخت في وجهها المديرة بجنون قائلة :

• كل ما حدث بسببك أنتي أيتها الشيطانة البائسة .. ما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء ؟! .. أخبريني كيف علمتِ بأنها ستحترق ؟!.. هل تعرفين من دبر لتلك الكارثة ؟.. سوف أسلمك للشرطة لنعرف ما تخبئينه ؟..

في تلك اللحظات انتابها شعور ملتبس جمع بين الخوف وتأنيب الضمير والكراهية تجاه تلك المديرة .. تساءلت هل كان بمقدورها فعل شيء لإنقاذهم بعد أن رفض الجميع تصديق رؤياها ؟!..

كانت ترتجف في أحضان عمتها مثل فرخ ذبيح بعد أن استجوبها أحد ضـباط الشـرطة للمرة الأولى في حياتها ليتأكد من أن أحداً لم يتعمد حدوث ذلك الحادث ..

الأغرب هو أن الأطفال الناجين من الحادث أكدوا أنهم رأوا "مارجريت" تجلس معهم بالحافلة قبل ثوانٍ من حدوث الارتطام ؛وشاهدوها أيضاً تسير عبر النيران ! ؛ لكن أحداً لم يراها تخرج من الحافلة فظنوا أنها لقيت حتفها بالداخل وأنهم في البداية لم يلحظوا عودتها إلى الحافلة قبل أن تتحرك !.

بكت "مارجريت" في تلك الليلة كما لم تبكي من قبل .. كانت تشعر وكأنها بذرة الشيطان أتى بها من أقصى الجحيم لتكون لعنة على أهل الأرض جميعاً !.

التساؤلات تطارد عقلها الصغير وتحاصره .. تضغط عليه وتدميه بأفكار سوداوية بائسة ..

تساءلت لماذا جئت إلى هذه الحياة ؟ .. ولماذا أنا على هذه الشاكلة؟!..

تساؤلاتها تتبخر في الأفق السرمدي كسحابات هزيلة متآكلة وتجلب معها صقيعاً بارداً يُعكر صفو لياليها ويصيبها بالأرق ..

لا أحد يجيبها سوى صفير الريح يتردد في الأجواء ويعود إليها حزيناً باهتاً ..

وفي اليوم التالي عثر على مديرة المدرسة مشنوقة ومعلقة بحبل تدلى من أعلى السقف !.

منذ ذلك الحين والأولاد والبنات يخشـــون الاقتراب منها وينعتونها بالساحرة ..

كان خوف "مارجريت" من نفســها لا يقل عن خوفهم منها ؛ فما حدث معها من أمور يعجز الكبار عن إدراكها وتفســيرها ؛ فكيف لعقلها الصغير أن يتحملها ؟!.

أخذ خوفها يتعاظم يوماً بعد يوم فانزوت بعيداً عن الناس وأصـــبحت تتجنبهم ؛ بعد أن صور لها عقلها أنها مصدر الشر وأن السبب فيما حدث للأطفال الذين احترقوا في الحافلة ؛ لعل نظرات معلميها وزملائها التي تصوب نحوها سهام الاتهامات الحارقة وكلمات المديرة المنتحرة هي ما جعلها تعتقد ذلك .

الوحيدة التي لم تخشـــاها قط ولم تتغير مشـــاعرها نحوها هي عمتها "ترجس" التي ربتها منذ وفاة والدها واعتبرتها بمثابة ابنتها الوحيدة بعد أن حرمت من الأولاد .

ففي ليلة وقوع ذلك الحادث الأليم أخذت العمة تضـــمها إلى صـــدرها بحنو بالغ وهي تربت على ظهرها برفق وتقول لها :

• لا تخافي يا حبيبتي فأنتي إنســـانـة مميزة للغاية لأن الله وهبكِ * قدرات خارقة تختصين بها أنتي وأشخاص قليلون في هذا العالم .

• مارجريت – ما معنى قدرات خارقة يا عمتي ؟

• العمة نرجس – إنها تلك الأشـياء التي تميزكِ عن غيرك من الناس ؛ فأنتي مثلاً رأيتِ الحادث قبل أن يقع بينما لم يرى أحداً عداكِ ذلك .. والســبب يا عزيزتي أنكي تمتلكين هذه القدرة المميزة ؛ ولكن عليكِ أن تحذري جيداً منذ اليوم وإياكِ أن تخبري أحداً عن تلك القدرة يا "مارجريت" .. إنه ســـر خطير وإذا علمه الآخرون فربما يحاولون إيذائك .

• مارجريت – ألا يمكنني إخبار عمي :رمزي: عن الأمر ؟

• العمة نرجس – لا .. إياكِ أن تخبريه ..

• مارجريت – ولكن يا عمتي لماذا أنا بالذات ؟! .. لماذا أختلف عن زملائي ؟! .. لماذا لا يكونون هم أيضـا مميزون وقادرون على رؤية ما رأيته ؟!

• العمة نرجس – لا أعرف يا حبيبتي فهناك أشـياء لا يعلمها إلا الله ؛ لكني أعتقد أن الله يحبك ولهذا جعلك ترين ذلك الشـــيء قبل وقوع الحادث لتنجين بحياتك .

لم تكن "مارجريت" تعلم أن عمتها كانت تنوي ســـراً اصـــطحابها في رحلـة للولايـات المتحدة الأمريكيـة لتعرضـــها هنـاك على أحد علمـاء "الباراسيكولوجي *" وعلوم ما وراء الطبيعة * ليفسر لها تلك الحوادث التي تقع لابنـة أخيهـا المتوفى ؛ لكنهـا لم تتمكن من ذلـك أبـداً لأن "رمزي" أرسلها قبل ذلك لعالم الموتى .

طوال السـنوات الإحدى عشـر الأولى من حياتها لم تحظى "مارجريت" بأي أصـــدقاء ولا تذكر أنها شـــاركت الأطفال اللعب ؛ ولكن بانتقال "مازن" إلى مدرســـتها وظهوره في حياتها انقلبت الأوضـــاع وعرفت الفتاة اللعب والمرح للمرة الأولى في حياتها .

كان "مـازن" أول صـــديق تحظى به "مارجريت" ؛ بل إنه في الحقيقة كان الصديق الوحيد الذي حظيت به .

***

• القدرات الخـارقة هي قدرات فطريـة تتجاوز حدود الحواس الخمس، وتصـنف على أنها إدراك ما فوق حسـي (esp) ، وتسـمى أيضًـا

بالحاسة السادسة ، ومازالت تلك القدرات تخضع للدراسة العلمية وإلى التشكيك في وجودها رغم وجود أدلة تاريخية على وجودها.

• " الباراسيكولوجي" هو علم ما وراء النفس أو علم النفس الموازي وهو دراسة علمية لحدوث حالات إدراك عقلي أو تأثيرات على الأجسام الفيزيائية دون تماس مباشر معها أو اتصال عن طريق وسيلة معروفة، وسمي كذلك علم نفس الحاسة السادسة .

• ما وراء الطبيعة : هي الأشياء التي لا تخضع لقوانين الطبيعة ، ترتبط الأفعال الخارقة بصورة غريبة للغاية بالأشياء غير الطبيعية والتنجيمية.

***

هو أيضاً كان طفلاً هادئاً منطوياً توفي والده وتركه يتيماً مثلها ؛ لكنه كان موهوباً بحق في الغناء ؛ لذا كان من الطبيعي لطفلان وحيدان مثلهما ويعشقان الموسيقى أن يجتمع شملهما ويصرا صديقان ؛ خاصة وأن منزليهما متجاوران وأنهما يدرسان في المدرسة نفسها.

ولكن للأسف تأتي الريح بما لا تشتهي السفن فسرعان ما تبددت آمالها كالسراب حين اكتشفت أن "مازن" ووالدته قد هاجرا إلى أمريكا وتركاها وحيدة في مواجهة الشيطان الذي وقعت أسيرة أصفاده

وضـــحية جرائمه ومؤامراته ؛ في وقت كانت في أمس الحاجة لهما ليخلصانها من ذلك المصير البائس .

أفاقت من شرودها حين داهمها رنين هاتفها المحمول .. تضغط على الزر وتجيب فيأتيها صـــوت "جاســـر" بمزاجه الفاتر ونبرته الباردة المعتادة التي تذكرها دوماً بالقتلة المجانين بجنون العظمة .. ســـألها قائلاً :

• هل أنتي على ما يرام ؟!

• مارجريت – نعم

• جاســـر – إذاً لماذا لم تتصـــلي بي طيلة النهار؟! .. ألم يكن من المفترض بنا أن نلتقي الليلة ؟

• مارجريت – لقد نســـيت .. أنا مرهقة .. تشـــاجرت اليوم مع "تزار" ولست في مزاج جيد .

• جاسر – هل هناك ثمة مشكلة ؟

• مارجريت – لا شيء مهم .

• جاســر – هناك أمر هام ينبغي أن أخبركِ به .. قابليني في المزرعة بعد ساعة .

• مارجريت – حسناً .

حين أنهت المكالمة أخذت تتمتم قائلة :

• الأفضل لك أن يكون الأمر هاماً كما تقول ..

تنظر إلى ســـاعة يدها وقد عقدت حاجبيها بتبرم .. ثم تدير محرك الســيارة وتمضــي مسـرعة نحو طريق القاهرة – الفيوم الصــحراوي ؛ وهي تتساءل عما إذا كانت ستتمكن من الوصول إلى مزرعة "جاسر" قبل أن تغطي العتمة كل شئ ؟ ..

***

حينما دقت السـاعة معلنة السـابعة مسـاءاً كانت سـيارة بيضـاء من طراز "هيونداي" يقودها "هاني " تقف أمام بوابة القصر ..

كان "بهاء" قد اتفق مع صديقه على استجواب حارس المقبرة العجوز لعلهما يستطيعان فك غموض تلك القضية ..

وما شـجعهما على ذلك هو أن "هاني" قد اكتشـف أنه قام باسـتجواب جميع ســكان القصــر عدا ذلك الرجل الذي يقيم في وســط المقبرة ؛ حيث لم يخطر ببال الشــرطيين أن حديقة القصــر تضــم بين طياتها مقبرة يحيا بها شخص ما .

كانت شـمس النهار تحتضـر حينما وصـلا "بهاء" و "هاني" إلى كوخ خشـــبي قديم يقع إلى جانب مقبرة العائلة ؛ أخذ "بهاء" يطرق باب الكوخ بقوة اســتمدها من وجود "هاني" إلى جواره ؛ فذكرى الأمس وما رآه في غرفة "مارجريت" لم تمحى بعد من ذاكرته .

وبينما كانا ينتظران أن يفتح لهما العجوز باب الدار سمعاه يقول :-

• لماذا عدت مجدداً ؟ .. لا تحاول أن تجاري فضـولك فما مضـى قد مضى وما ذهب لن يعود .. ستفتح على نفسك أبواب الجحيم .. هذه الأبواب إذا فتحت لن تغلق أبداً ..

"هاني" وصـديقه يلتفتان إلى الوراء صـوب الرجل الواقف خلفهما وهما مشـــدوهين يحاولان أن يفهما شـــيئاً من هذيانه ؛ وفور أن انتهى العجوز من حديثه الغريب قام "هاني " بتعريفه بنفســه وأخبره أنه هنا ليطرح عليه بعضـــاً من الأســـئلة حول الجريمة التي وقعت هنا منذ أسبوع تقريباً ..

تصلب وجه العجوز وكست وجهه ملامح الخوف ثم قال :-

• إنـه ثأر قديم .. هنـاك من يحاول تحقيق العدالة في عالم يخلو من العدالة .

• هاني – أتقصـــد أن "رمزي" ارتكب جريمة ما وهناك من قتله انتقاماً منه على جريمته تلك ؟!..

• العجوز – الماضي لم يموت .. لقد استيقظ للتو من سباته العميق .. ذلك الشيء لم ينتهي بعد .. ولن ينتهي حتى تتحقق العدالة ..

• هاني – ومن عســاه أن يكون ذلك القاتل الذي يســعى إلى تحقيق عدالته المزعومة تلك ؟!.

• العجوز – هناك أســرار دفنت مع أصـــحابها والبوح وحده قد يقتل أصحابه.

• بهاء وقد بدأ بالتبرم من ألغاز العجوز وأحاجيه :-

تلك الفتاة التي كانت في المقبرة ليلة أمس هل لها علاقة بالأمر ؟ ..

• العجوز – في هذا البيت دماء سفكت وقلوب ماتت وأشياء استيقظت لم يكن من المفترض أن تستيقظ ..

ثم يلتفت إلى "بهاء" مخاطباً إياه :-

• لا تتجول بمفردك ليلاً كي لا تلتقيها أثناء تجوالها الليلي ..

• بهاء – من تلك ؟! .. أتقصد "مارجريت" ؟!..

• العجوز هامساً – أخفض صوتك .. هناك أشياء لن تفهمها أبداً .. لن تفهم حتى تلتقيها وحينها لن تعود إلى عالمناً مجدداً ..

• هاني – في ليلة مقتل السيد "رمزي" هل كنت موجوداً هنا ؟ .. وما الذي تذكره عنها ؟.

• العجوز – في تلك الليلة كانت الريح تعصف بقوة حاملة معها أرواح الموتى الغاضبون .. عرفت أنهم يتهامسون حول أمر سيء سيحدث لكني لم أكن أعلم ما هو ؟ .. أخذت أتجول في حديقة القصر .. وفي الأعلى رأيتها .. أخذوا يقسمون لي بأنها لم تكن هناك ؛ لكنني واثق مما رأيت .

لم يفلحا في الحصول على أي معلومة إضافية فالرجل رفض البوح بالمزيد وتركهما غارقان في حيرتهما !!..

بعض حديث الرجل بدا حكيماً للغاية والبعض الآخر يبدو جنونياً ..

ومع ذلك لا يمكن لهاني أن يأخذ في اعتباره شهادة رجل به مس من الجنون ..

ولكنه استخلص من كلام العجوز أن هناك قاتل ما يحاول تطبيق العدالة ولذا قام بقتل "رمزي" وسيستمر في القتل حتى يحقق عدالته

المنشـودة .. ووضـع فى ذهنه إحتمال أن يكون الرجل صـادقاً بشـأن جرائم وقعت في الماضي بذلك المكان المريب .

ولكن ماذا عن هذيانه بشـأن الأشـياء التي اسـتيقظت وتتجول ليلاً وادعى أنـه رآها ليلـة الحـادث تقف في أعلى القصـر وقت حدوث الجريمة ؟!

هل للأمر علاقة بالفتاة "مارجريت" أم لا ؟!

تراه أراد أن يقول أنها كانت موجودة هنا ليلة مقتل "رمزي" ؟!

ولكن كيف وقد تـأكد "هانـي" بنفسـه من أنها كـانـت في وقت وقوع الجريمة داخل غرفتها بأحد فنادق مدينة شـرم الشـيخ ولم تبرحها منذ أن تناولت طعام العشـاء ؟! – تماماً كما أكدت له في أثناء التحقيق – فكاميرات المراقبة داخل الفندق كانت دليل براءتها !!.

" لا شك في أنه يهذي " .. هكذا قال "هانـي" لصاحبه "بهاء" الذي كان يتأرجح بين التصديق والإنكار..

عقارب السـاعة تدق برتابة .. الريح تصـفق بقوة لتفتح النافذة على مصـراعيها .. قطرات من المطر تتسـلل إلى غرفة "بهاء" الذي بدا منكباً على أوراق واحدة من القضـايا ولم يكترث للأمطار الهاطلة ولا لتلك البرودة القاسية التي غمرت المكان بأسره .

طرقات على الباب جعلته ينهض من مقعده ليفتحه ؛ وما إن دلفا أخاه و"مازن" إلى الغرفة حتى استشعرا برودة الجو ..

قال له "نزار" مندهشاً :

• لماذا تترك نافذة غرفتك مفتوحة على مصراعيها ؟! .. ألا تشعر بالبرد ؟!. أنظر ها هي الأمطار قد بللت الغرفة وسوف تصاب أنت بنوبة أنفلونزا على هذا النحو .

"بهاء" بينما يوصد النافذة :

• يا إلهي لم ألحظ ذلك فقد كنت منشغلاً بالعمل .

• نزار – أنت ترهق نفسك كثيرًا .

• مازن – هيا أخبره يا أبي .

• نزار – يبدو أننا أمام مشكلة يا أخي .. لقد تجاوزنا منتصف الليل والفتاة لم تعد للبيت بعد !.

• بهاء – ربما هي معتادة على السهر خارج المنزل والعودة في وقت متأخر من الليل تماماً كما اعتادت على الكثير من عاداتها السيئة .. لا أدري لماذا لم يؤدبها عمي ؟!.

• مازن – ماذا عســاها أن تفعل في هذا البرد القارص ؟!.. لا شــك أنها قد أصابها مكروه .

• نزار – أيعقل أنها لا تزال غاضبة ؟!.

• مازن – أظن أن علينا أن نبلغ الشرطة .

• بهاء – وماذا ســنقول لهم ؟! .. هل نقول إن ابنة شــقيق زوجة عمنا الراحل تســكن معنا في القصــر وأنها تأخرت في العودة ؟!.. ينبغي عليكما أن تهدئا وتنتظرا لبعض الوقت ؛ وإذا لم تعد الفتاة إلى البيت فسوف أتصرف بنفسي .. حاولوا أن تعثروا على رقم هاتفها المحمول أو اسألوا عنه الخدم ؛ والآن دعوني أكمل عملي .

***

الساعة الآن الواحدة والنصف مساءاً و"مارجريت" لم تصل بعد إلى مزرعة "جاســر" كما أنها لم تعد أيضــاً إلى القصــر .. إنها المرة الثلاثون التي يتصــل فيها "جاســر" بها ويجيبه النداء الآلي بأن الهاتف المطلوب مغلق أو خارج نطاق التغطية .. أخذت الظنون تتلاعب بعقله وأصابته الحيرة .. تساءل أين ذهبت هذه الفتاة ؟!

هكذا قالها غاضباً قبل أن يحسم أمره ويقرر الاتصال بهاتف منزلها لعله يعرف لماذا لم تصل بعد إلى المزرعة ؟!.

يضـغط على أزرار الهاتف .. ينتظر قليلاً .. يأتيه صـوت رنين متقطع .. يجيبه خادم إفريقي باللغة الإنجليزية ويخبره بأن الآنسة "مارجريت" ليست هنا .

• جاسـر بنفاذ صـبر – من عندك إذاً من أصـحاب القصـر؟ .. أريد التحدث إلى أحدهم .. الأمر عاجل وخطير.

في الوقت نفسـه كان "مازن" يجوب ردهات القصـر قلقاً اسـتمع إلى حديث الخادم وهو يقول للمتصـل بأن "مارجريت" ليسـت هنا .. يسـرع ممسكاً بسماعة الهاتف وهو يقول للخادم :

• ناولني إياه .

• مرحباً .. من هناك ؟.

• جاسـر– اسـمعني جيداً .. أنا رفيق "مارجريت" وكان من المفترض أن نتقابل منذ سـاعات عدة ؛ لكنها لم تصـل بعد ، وأخبرني خادمكم بأنها لم تعد إلى المنزل أيضًا .. لذا أصبحت متأكدا من أنها في خطر ، وسـوف أبدأ حالاً بالبحث عنها ؛ وأنت قم بإبلاغ الشـرطة لعلها تبحث عنها ..

وقبل أن ينبس الفتى ببنت شـفة كان المتحدث قد أنهى الاتصـال .. وقف "مازن" مشـدوهاً متسـمراً في مكانه ؛ وكأن حجراً قد سـقط على رأسه قبل أن يستوعب حقيقة الأمر ..

يهرع فزعاً نحو غرفة "بهاء" قائلاً :

• تصـرف أرجوك .. إنها في خطر .. كانت في طريقها لتقابل أصـدقائها منذ سـاعات ؛ لكنها لم تصـل إليهم بعد .. افعل شـيئاً أرجوك.

***

كانت السـماء قد توقفت عن الهطول مخلفة ورائها بحيرات صـغيرة تغمر طرقات وشوارع المدينة حين تسربت أشعة الفجر لتكسو السماء بعباءة قرمزية تشوبها خطوط حمراء ..

رجال يرتدون بذلات داكنة ويقبضون بأيديهم على أسلحة نارية ؛ وقد اصـطحبوا معهم كلاب من فصـيلة "الچيرمان" تتقدمهم باحثة عن أي أثر للفتاة المفقودة ..

فجأة تطلق الكلاب نباحاً متصـلاً فينتبه الرجال لما عثرت عليه كلابهم .. أحدهم ينادي "جاسر" قائلاً :

• سيدي .. يبدو أننا وجدنا شيئاً .

يسرع "جاسر" الخطى شاهراً سلاحه ويقترب أكثر من الجسد المسجى وسط الأعشاب الكثيفة الممتدة على جانب الطريق السريع .. يطلب من رجاله أن يسلطوا أضواء الكشافات على ذلك الشخص .. ولدهشته يجدها "مارجريت" !.. كانت غائبة عن الوعي وقلبها بالكاد ينبض بالحياة .. ثيابها ممزقة وهي شبه عارية .. الدماء تغمرها وتحيط بها والكدمات تشوه وجهها وجسدها ..

يشهق "جاسر" حين يراها على هذه الحال ويحملها على الفور إلى سيارته ليرسلها إلى أقرب مستشفى..حين وصلت "مارجريت"إلى المستشفى .

كانت في حال يرثى لها جعلت الأطباء يشكون في أنها سوف تبقى على قيد الحياة ؛ فالفتاه تعرضت للاغتصاب من قبل عدة أشخاص لم يكتفوا بذلك بل أخذوا يكيلون لها الضربات القوية..كانت قد بدأت الدخول في غيبوبة بعد أن فقدت الكثير من الدماء وتعرضت لألام مبرحة ، لذا قال الطبيب مخاطباً "جاسر":

"لست واثقاً من أنها ستنجو، ولكننا سنفعل ما بوسعنا لإنقاذها فحالتها متأخرة للغاية.. ولكن عليك أن تحرر محضراً بالواقعة من قسم الشرطة لعلهم يضبطون الجناة.."

كانت الشـمس قد أشـرقت باعثة معها ببعض الدفء الذي أخذ يبدد من برودة الأجواء شـيئًا فشـيئًا .. تذكر "جاسـر" العائلة التي تشـارك فتاته القصـر ورأى أنه من الأفضـل أن يعلمهم بعثوره عليها ويطلعهم على حقيقة وضعها الصحي ليتصرفوا في حال ساءت الأمور أكثر من ذلك .

في تلك الأثناء لم يدع "نزار" وابنه مخفرًا للشـرطة إلاّ وقد اتصـلا به للسؤال عن "مارجريت" ، أما "بهاء" فقد كان برفقة أصدقاءه من رجال الشـرطة للبحث عن الفتاة بشـكل غير رسـمي إذ لم يمضـي على اختفاءها أربع وعشرون ساعة .

وحين اتصـل "جاسـر" للمرة الثانية ليخبرهم بعثوره عليها أجابه "نزار" الذي شـكره على اهتمامـه، وقد خالجه في تلك اللحظات مشـاعر متناقضـة تتراوح بين القلق والارتياح والأمل والرثاء ، أما "مازن" فقد جاهد ليكبح جماح دموعه وقال مصتنعًا التماسك :

علينا أن نخبر عمي "بهاء" بذلك قبل أن نذهب إلى المشفى.

***

ثلاثة أيام مضـت على واقعة اغتصـاب "مارجريت" وسـرقة سـيارتها قضتها الفتاة في المشفى ولم تنبس خلالها ببنت شفة منذ أن أفاقت من إغماءها .. بدت هزيلة واهنة يعلو وجهها الشـحوب والإرهاق وقد

غمرته صفرة بائسة ، لم تذق من الطعام شيئًا واكتفت بتلك المحاليل والحقن التي يحقنها بها الأطباء لتحافظ على آخر ما تبقى لها من رمق.

لم يكن النزيف وحده ما نال منها بل إصابتها بالحمى بعد أن باتت عارية في العراء في تلك الليلة الباردة .

كانت تجاهد لتبقى مستيقظة ، وحين يغلبها النوم تداهمها الكوابيس فتستيقظ من نومها فزعة وتقضى ليلها تجاهد لتبقى مستيقظة تفكر وتفكر ولا تخلد إلى النوم إلاّ عندما تخور قواها .

مكثت "مارجريت" طيلة الأيام الثلاثة صامتة كالحجر ولم تجدي محاولات الجميع لجعلها تتحدث لذا قال لهم الطبيب إنها مصابة بصدمة عصبية حادة أفقدتها النطق ، ولكن في الليلة الثالثة أثبتت خطأ تشخيصه حين تحدثت إلى "جاسر" الذي جلس إلى جوارها ممسكًا بيديها وراجيًا إياها أن تقول شيئًا وتقلع عن صمتها الذي يعذبه ، قالت له ببساطة :

– أخرجني من هذا المكان .. أريد العودة إلى القصر.

جاسر– أخيرًا تحدثتِ يا حبيبتي . هل أنتِ بخير الآن ؟

– مارجريت – اعثر لي على أولئك الأوغاد .. أريد قتلهم بيداي .. إياك أن تعثر عليهم الشرطة قبلنا.

***

الفصل السابع

"عودة الدم"

كانت ترتجف وتهذي بكلمات غير مفهومة سرعان ما تحولت إلى صرخات واستغاثات يشوبها الألم .. أخذت الذكريات المؤلمة تتلاحق على مخيلتها بسرعة البرق ، صداع حاد يكاد يفتك برأسها تمامًا ، امتزج الحاضر بالماضي وتلاشت بينهما حدود الزمان ، ترى "رمزي" يتحسس جسدها بشهوانية واضحة وعيناه الشيطانيتان تكادا تلتهمانها ، يحاول تجريدها من ملابسها ، تدفعه عنها ، تفر وتركض في الأنحاء ، تختفي خلف الأشجار الشاهقة .

ذكرى اغتصابها تراودها بقسوة .. هؤلاء الثلاثة ذوي الملامح القاسية يجذبونها خارج سيارتها .. تصرخ وما من أحد يغيثها .. تتوالى اللكمات والصفعات على صفحة وجهها الذي تحول إلى الحمرة المشوبة بزرقة الموتى .. يمزقون ثيابها كوحوش كاسرة .. جسدها عاجز عن الحركة وعيناها هائمتان في الأفق .. داهمتها آلام حادة وغابت عن الوعي.

الذكريات الأليمة تمتزج والصور تتلاحق كمشاهد سينمائية في أحد أفلام الرعب .. تطلق صرخة حادة وتفتح عيناها ، كان صدرها يعلو ويهبط بسرعة خاطفة ، وحين رأت "تزار" واقفًا إلى جوار فراشها قلت بنبرة تعلوها الريبة وبأنفاس متقطعة :

– ماذا تفعل هنا ؟!.

– نزار– أردت الاطمئنان عليكِ .. حرارتك مرتفعة للغاية وكنتِ تهذين منذ لحظات .

– مارجريت– أشعر بالبرد .. إني أرتجف وأسناني تصطك.

تسعل سعالاً متقطعًا ، فيسرع "نزار" ويناولها كوبًا من الماء ، ثم يتبادل هو و"مازن" – الذي وقف بجوار باب الغرفة وشبح دمعة إشفاق تترقرق في عينيه – نظرات ذات مغزى .

تدور "مارجريت" بعينيها في محيط الغرفة فتصطدم أنظارها بـ"مازن" الذي انكمش إلى جوار الجدار ، فتقول مندهشة :

– منذ متى وأنت هنا ؟ لم أرك.

– مازن – كنت هنا قبل أن تفيقي .

نزار– لم تزل حرارتكِ مرتفعة ، ينبغي أن أحقنكِ بهذا الدواء.

رغم أنها أومأت برأسها له – علامة الموافقة – إلاّ أنها كانت سابحة بفكرها في ملكوتٍ آخر ، بدت شاحبة هائمة على وجهها في أرض التيه وسط ملايين الأفكار ، لم ينتشلها من بحر أفكارها سوى وخز رأس الإبرة التي غرسها "نزار" في مؤخرتها ، تطلق أنات مكتومة قبل أن ينتهي من حقنها ثم تعود إلى شرودها مجددًا.

"مـازن" يقترب من فراشـــهـا بخطوات مرتبكـة ووجهـه يعلوه الخجـل الممتزج بالقلق ، يمعن النظر فيها قبل أن يهمس قائلًا :

-هل أنتي بخير ؟ .. هل تشعرين بالألم ؟

تنتبه "مارجريت" فجأة كمن اســتيقظ لتوه من النوم فزعًا ، تطيل النظر إليه ولا تنبس ببنت شـفة ، بينما هو يتصـبب عرقًا ويحاول جاهدًا أن يخفي خجله وارتباكه ، فلــ"مارجريت" سطوة وتأثيرًا كبيرًا عليه حتى لو كانت على حالها تلك .. مريضة وحزينة ومنكسرة .

ويبدو أنها تفهمت ما يعانيه الفتى ، فأشــفقت عليه وقررت أن تخرق الصـــمت المطبق ، وتقطع عليـه مخـاوفـه ، قـالـت وهي تجـاهد كي تبتسم:

-لا تقلق سأكون على ما يرام.

-مازن – أتمنى أن تتعافي بسرعة وتمسين أفضل مما كنتِ عليه.

تومئ برأسـها إيماءة خفيفة قبل أن يسألها "نزار" عما إذا كانت بحاجة إلى شـــيء ، ثم يطلب من "مازن " أن يغادرا الغرفة ليدعاها ترتاح ، تركاها وحيدة وعاد الصمت ليخيم من جديد.

***

شيئًا ما بداخل "مارجريت " انكسر ولن يعود كما كان ، لم تعد تتحمل نظرات الشـــفقة في عيون الآخرين ، ورغم أنها كانت – ولا تزال – تعاني طيلة حياتها إلاّ أن كبريائها الأبية رفضـــت الســـماح للعيون المتلصصة وفضول الآخرين بأن يعرفوا شيئًا عن معاناتها ، دائمًا ما ترتدي قناع المرأة الحديدية وتتظاهر بأنها بخير ، ليس الأمر بالنسبة إليها أن ثلاثة أوغاد سـلبوها ما عجز "رمزي" عن سـرقته منها طيلة تلك السنوات ، فلطالما كانت "مارجريت " يخشاها الرجال ، يشتهونها ولا يملكون الجرأة على الاقتراب منها ، وأن تنهار كل تلك الأســـوار التي بنتها حولها في ليلة وضحاها ، وأن يعجز "جاسر" الذي يخشاه أعتى المجرمين وأشـــد الرجال بأســـاً عن حمايتها ؛ فتترك عارية في العراء وتبيت ليلتها الشـــتوية الباردة على ذلك الحال ، ثم يعثر عليها رجال "جاســر" كطفل ضـــائع ، وتحملها ســـيارته كحمل صـــغير وهي تجاهد للتمســـك بآخر ما تبقى لديها من قطرات دم لم تفقدها وآخر ما لها من أمل ورغبة في الحياة..

كل ذلك لم يكن ليدور بخلدها يومًا ولم تتوقع حتى في أسوء كوابيسها أن يحدث .. كيف لا تنكســـر إذًا وهي ترى عدوها اللدود "بهاء" الذي يسـعى لإثبات تورطها في مقتل عمه ، ينظر إليها نظرات شـفقة كتلك التي ينظر بها لطير جريح هوى من بين الســـحاب ليتحطم جناحاه ويعجز عن الطيران ؟!.

أقسمت أن تنتقم على طريقتها مهما طال الزمان وبات الانتقام يشغل رأسها ويلح عليها طيلة الأيام الثلاثة التي قضتها طريحة الفراش ، كلما تألمت كلما ازدادت رغبتها في الثأر والانتقام، ولكن لتنتقم عليها أن تعثر على الأوغاد أولاً.

***

الريح تعزف أنشودتها الحزينة والبرودة تسحب الحياة رويدًا رويدًا من أوصال الكائنات في تلك الليالي الشتوية الباردة التي خاصمها القمر كما خاصمتها الأفراح .

حالة من الكآبة تغمر القصر وسكانه، تكسو جدرانه وتحيطه بسياج من الحزن والأسى..

كان من الطبيعي أن يشعر "مازن" بالحزن لما أصاب صديقة طفولته ومحبوبته السرية ، ولم يكن أن يشفق عليها الطبيب "تزار" ويعتني بها أثناء مرضها ويحاول التخفيف عنها ؛ لكن موقف "بهاء"هو ما أصابها بالحيرة وأشعل نيران الغضب في نفسها .. لم تتوقع "مارجريت" أن تصل بها الحال يومًا إلى درجة أن يشفق عليها من يعدها عدوة له ويسعى للزج بها إلى السجن ، كانت تتوقع أن يشمت بها لا أن يشعر بتأنيب الضمير تجاهها ، لعل ذلك بسبب ما لاقته من شرور وقسوة في عالمها جعلاها تحسب أن العالم قد خلا من الرحمة.

كانت الفتاة تغط في ســـبات عميق حين جلس الأخوان حول المائدة وبرفقتهما "مازن" – الذي بدا الوجوم على وجهه – يحتسـون حسـاءًا دافئًا ، تساءل "بهاء" قائلًا :

– هل قدمتما لها شيئًا لتأكله ؟ .. لا شك في أنها جائعة.

– نزار– إنها تكاد لا تأكل شيئًا .. مسكينة فصدمتها قوية.

– بهاء – أشعر بالأسى من أجلها.

فترات من الصـمت يشـوبها وميض البرق النافذ من زجاج نوافذ حجرة الطعام ، يتبعها هزيم الرعد الذي يدوي في الأرجاء وصـــفير الريح يتحد مع حفيف أوراق الشجر لتكتمل السيمفونية الشتوية البائسة.

يمزق "بهاء الصمت مجددًا ويقول لأخيه:

وكيف حالها اليوم ؟ .. ألا تزال حرارتها مرتفعة ؟

–نزار– للأسف نعم .. ما كان علينا أن نسمح لها بمغادرة المشفى ؛ فليس وضـعها الصـحي وحده ما يقلقني ، بل أيضًـا حالتها النفسـية غير مطمئنة على الإطلاق .. أخشى أن تُقدم على فعلٍ أخرق.

فجأة تخترق سكون الليل صرخة وحشية تدوي في الأرجاء وتعلو فوق كل الأصوات .. تخترق الجدران وتحلق في السماء متحدة مع ذرات الأثير .. كان الصوت أعلى من أن يصموا آذانهم عنه.

انتفض جميع سكان القصر مذعورين ليبحثوا عن مصدر الصوت ،أخذ الثلاثة ينظرون لبعضهم البعض نظرات حائرة متسائلة ، قبل أن يركض "مازن" صوب غرفة "مارجريت" بعد أن ساورته الظنون حول أن تكون الفتاة النائمة في الغرفة المجاورة قد أصابها مكروه ، خاصة أنهم اعتادوا كوابيسها وصراخها أثناء الليل منذ أن عادت من المشفى ، وتبعه "نزار" هو الآخر على عكس أخيه الذي اتجه إلى حديقة القصر ؛ حيث أخبره حدسه البوليسي بأن هناك يكمن مصدر الصوت.

تنفس "مازن" الصعداء حين وجدها نائمة ، تساءل عما عساه أن يكون مصدر الصوت ، حين وضع "نزار" يده على جبين الفتاة وجده يغلي كالجحيم وهاله أن الفتاة تتصبب عرقًا بغزارة ؛ فأمر "مازن" بجلب الثلج والماء البارد ريثما يحاول هو إيقاظها .

كان الظلام دامسًا وسط الأشجار العملاقة في الحديقة الشاسعة ، بالكاد كان "بهاء" يتحسس طريقه وسط تلك الأشجار .. وفي جوف الظلام لمح ظلًا يتحرك بسرعة خاطفة ، تملكه القلق وأخذ يتصبب عرقًا ؛ لكنه تسلل على أطراف أصابعه تجاه ذلك الشيء، لم يستطع

أن يتبين حقيقة ما رآه لكنه حتمًا ليس بشـريًا ؛ فسـرعته الخاطفة لا يعقل أن يمتلكها إنسان !.

دب الذعر في قلب "بهاء" حين تساءل عن هوية ذلك الشـيء، وتذكر فجأة ذلك الشـبح الذي رآه في غرفة "مارجريت" ، وتسـاءل أيعقل أن يكون هذا البيت مسكون ؟!.

ولكن لماذا لم يرى ذلك الشيء في أي من غرف القصر الأخرى ؟

داهم ذاكرته حديث العجوز عن الشـيء الذي يتجول ليلًا فارتعدت فرائسـه وتجمدت أوصـاله وهو يراقب ذلك الكائن الماورائي الذي يبتعد عن بضع أمتار بينما اختبئ هو بين الأشجار حتى تلاشى ذلك الكيان إلى العدم .

كان "بهاء" يلهث ويسـير متخبطًا في طريقه للعودة وكاد قلبه أن يتوقف عن الخفقان حين تعثر بشـيء ما على الأرض، ولدهشـته كان جثة غمرتها الدماء.

دارت به الأرض وأصابه الغثيان حين اكتشف أن الدم قد لطخ سرواله ، فهرع مسرعًا إلى القصر وهو لا يكاد يصدق ما رآه .

كان باب غرفة "مارجريت" مفتوحًا على مصـــراعيه حين لمحه "نزار" يركض في الردهة مترنحًا كالأحياء الأموات ، فناداه طالبًا منه الدخول إلى الغرفة.

وهاله الحال التي بدا عليها أخاه ،وتلك الدماء التي لطخت ســـرواله، قبل أن ينبس ببنت شفة همس "بهاء" بأنفاس متقطعة :

"هناك جريمة أخرى وقعت في حديقة القصر".

نزار بدهشة بالغة:

– جريمة ماذا ؟

– بهاء– جريمة قتل

"مارجريت" تحدق بكليهما بوجه خالي من التعبيرات وتظل على حالها صـــامتة دون حراك، أما "مازن" الذي دلف لفوره عبر باب الغرفة فقد بدا عليه الوجل بعد ما تســـلل إلى أذنيه من حديث ، وهو ينظر إلى والده نظرات توسل ويقول له:

– أرجوك يا أبي دعنا نغادر هذا المكان ونعود من حيث أتينا.. أشـعر وكأن هذا المكان ملعون.

– نزار– دعك من الخرافات يا بني.

– مـازن– هـذا المكـان ليس آمنـاً.. أرجوك يـا عمي فلنغـادر ونـأخـذ "مارجريت " معنا.

يعلو وجه "مارجريت" ابتســـامة غامضـــة وقد لاح في عينيها بريق الانتصار.

بهاء– ليس هذا وقتًا مناسبًا للهراء، ينبغي أن أستدعي الشرطة على الفور–

:مارجريت" تخرج عن صمتها وتقول بلهجة تعلوها السخرية"

– ما الذي لطّخ ثيابك بالدماء إذًا ؟

–بهاء– إلام تلمحين ؟

–مارجريت– لا شـيء فأنا لا أظنك قاتلًا .. ولكن أليس من السيئ أن يجد البريء نفسه متهمًا ؟!.

بهاء يصاب بالارتباك وهو يقول متلعثمًا:

– جميعكم سـمعتم صـوت الصـراخ ونحن نتناول الطعام سـويًا ، فلا يعقل أن أكون أنا القاتل .. أما أنتي فلم تكوني معنا لذا..

مارجريت– تظنني أنا القاتل

-مازن- ماذا ؟

-نزار- هل جننت يا أخي ؟!.. الفتاة محمومة وحرارتها تجاوزت واحدًا وأربعون درجة .. كانت غائبة عن الوعي حين دخلنا إلى الغرفة.. ما تقوله هو المستحيل بعينه.

-مازن- إنها مريضة للغاية وينبغي أن نعيدها إلى المشفى.

-مارجريت- إنه يحاول إلصاق التهمة بي لينوء بنفسه بعيدًا عن قفص الاتهام.

-بهاء- لا هذا غير صحيح.. أنتم لا تصدقونها.

تتسع ابتسامة "مارجريت" ويزداد معها شعورها بالنصر، تقول في سريرتها :

"أنت لم ترى شيئًا بعد صدقني ، هذه هي البداية فقط، سوف أجعل ترى بنفسك كيف يكون العبث مع "مارجريت".. هذا لا شيء بالنسبة لي"

-نزار- أرجوكما توقفا عن ذلك، جميعنا يعلم أن القاتل ليس واحدًا منا.

-مارجريت- حقًا ! .. ولماذا لم تقل ذلك عن مقتل عمكما ؟

-نزار- ماذا تقصدين ؟.

-مارجريت- أخاك يراقبني ويتسلل إلى غرفتي بدون إذن مني ويفتش بين أغراضي .. يظنني مجرمة.

-نزار وقد شعر بالخزي- هل هذا صحيح ؟!.. أنت فعلت ذلك ؟.

-مازن مندهشًا- لماذا يا عمي ؟.

- "بهاء" يطرق إلى الأسفل وقد شعر بالخجل ، ثم يقول:

في الحقيقة كانت لدي شكوك نحوها.. فالجميع أكدوا أنها كانت على عداوة مع عمي وأنها تشاجرت معه وتوعدته بالانتقام في الليلة السابقة لمقتله.

-مازن- يستحيل أن تفعل "مارجريت" شيئًا مماثلًا .. إنها صديقتي منذ الطفولة وأعرفها جيدًا.

-نزار- النيابة أخلت سبيلها ولم تجد ما يدينها فلماذا تدينها أنت ؟.. عيب عليك ما تفعله هيا اعتذر منها.

-بهاء مغتاظًا : حسنًا ما كان ينبغي أن أدخل غرفتكِ بدون إذن .. أنا حقًا آسف.. والآن دعوني أبلغ الشرطة.

-مارجريت- هل جننت ؟!.. تخلص أولًا من آثار الدماء تلك وإلاّ ستكون المتهم الأول في تلك الجريمة ولن يصدقك أحد.

-نزار - إنها محقة لا تجلب لنفسك المتاعب أيها المستشار.

-مارجريت- أقترح أن تنتظر حتى الصباح ولا تقوم بالإبلاغ بنفسك.. دع الخدم يكتشفون أمر الجثة كي لا يكون أحدكم موضع شبهة.

-بهاء- لا يمكنني ذلك .. لعل المجني عليه يكون على قيد الحياة فأنا لم أرى جيدًا في الظلام ، كما أن ما تطلبينه هو تستر على جريمة قتل وقد يعود القاتل ليخفي الأدلة قبل وصول الشرطة.

***

رجال الشرطة يملئون حديقة القصر وكلابهم البوليسية تزيد بنباحها وحشة الليل وقسوته وتذكر "مارجريت" بذكريات تقتلها كل ليلة.

تذكرت تلك الليلة التي هربت فيها من القصر بعد أن طاردتها كلاب "رمزي" المتوحشة.

كانت تسير في الطرقات على غير هدى.. حافية الأقدام وثيابها ملطخة بالوحل.. برودة الشتاء تجمد أوصالها وقطرات المطر تتساقط عبر خصلات شعرها وثيابها.

في ذلك الوقت المتأخر من الليل كانت الطرقات شـبه خالية من المارة ، خاصة أن هذا الشتاء جاء بغير ما تشتهي السفن .

في البداية قصـدت منزل صـديقها "مازن" وهي تحسـب أنه سـيكون ملاذًا لها من الشـيطان الكهل الذي يطاردها، لكن طرقاتها على الباب جاءت بلا جدوى ، حتى أشـفق عليها أحد الجيران فناداها قائلًا بنبرة واثقة:

"لقد رحلوا من هنا .. أظن أنهم قد سافروا إلى الخارج"

لم تعرف في ذلك الوقت إلى أين تذهب وما الذي يجب عليها فعله ؟

ولم يكن من المسـتغرب أن تفقد الفتاة وعيها جراء الإعياء بعد أن طاردها عدد من فتيان الشوارع والمجرمون.

في الصباح كانت "مارجريت" ممدة على أحد الأسرة في مستشفى لا يبعد كثيرًا عن القصر، علمت بأن الإسعاف قد نقلتها إلى هنا بعد أن عثر عليها الأهالي وأبلغوا الشـرطة، تملكها الرعب حين رأت "رمزي" واقفًا برفقتهم ، وتذكرت كيف قام برشـوة بعض الشـرطيين ليعتبرون مقتل عمتها انتحارًا ، ارتعدت فرائسـها حين تخليت ما يمكنه فعله بها بعد أن يعيدها معه إلى القصر.

علمت الفتاة القاصرة أن الشرطة حصلت منه على تعهد برعايتها وإلا ستعين لها المحكمة من يكفلها غيره، فكان في ذلك عزاءاً لها واطمئن قلبها إلى أنه لن يفتك بها، لكنه بالطبع سيصب فوق رأسها أقصى أنواع العذاب كي لا تفكر في الفرار مجددًا وجلب المزيد من المتاعب، فبقاءها تحت وصايته يجعله متحكمًا في إرثها الكبير.

***

في موقع الجريمة وقف "بهاء" برفقة صديقه "هاني" الذي حضر لتوه بعد أن اتصل به الأول.

كانت الجثة لحارس المقبرة العجوز مخضبة بالدماء بعد أن اقتلع القاتل قلبه بوحشية وهو لا يزال ينبض بالحياة، لم تكن ملامح الذعر البادية على وجه العجوز أقل من تلك التي رسمها الخوف على جثة "رمزي".

بدا واضحًا أن طريقة قتل العجوز وحدها كفيلة بذلك الذعر وتلك الصرخة المدوية التي سمعها الجميع، أما الجريمة الأولى فقد لفها غموض أكبر.

وأثار دهشة المحققين تلك النجمة السحرية المرسومة بالدماء على جبهة العجوز وتلك الكلمات المبهمة المكتوبة على الشجرة:

"العدالة تتحقق .. الموت لأعوان الشيطان.. سأعود"

بدا "هاني" غير مصدقًا لما تراه عيناه وكذلك كان حال رجال الشرطة ، أما "بهاء" فقد تسارعت دقات قلبه وأخذ يتصبب عرقًا ساخناً ، وانتشله من شروده صوت صديقه يقول:

– يا إلهي.. ما هذه الجريمة ؟!..

أي قاتل عديم الرحمة ذلك الذي يقتلع قلب إنسان حي ؟.. أتساءل كيف لشخص عادي أن يفعل ذلك ؟ .. وما هذه الرموز السحرية ؟!.

كل هذا يؤكد أن أمرًا خارقًا للطبيعة قد حدث في هذا القصر.. ولكن من الذي يفعل ذلك يا ترى ؟.

– بهاء– فلنعد إلى القصر أو نذهب إلى أي مكان آخر.. فأنا لم أعد أطيق الوقوف في هذا المكان.. أشعر بأنني سأختنق.

– هاني– حسنًا .. هيا بنا .. ولكن عليك أن تخبرني مجددًا بما حدث بالضبط وما الذي جرى للفتاة وجعلك تغير رأيك وتظن أنها لا علاقة لها بما يجري.

***

وفي صباح اليوم التالي أفاقت "مارجريت " بوجه صبوح وكأن شيئًا من تلك الحمى التي أصابتها بالأمس لم يكن يومًا .. بدت إمارات الارتياح على ملامحها الدقيقة بعد أن تلقت اتصالاً من "جاسر" أخبرها فيه أنه عثر على الثلاثة الذين يشتبه في كونهم قاموا باغتصابها وأنهم في قبضته الآن.

تنفست الصعداء حين علمت أن عدالة "جاسر المزعومة قد سبقت عدالة الشرطة التي ضللتها "مارجريت" حين كذبت مدعية أنها لم ترى الجناة بسبب الظلام الدامس.

كانت تعلم جيدًا أن رجال الشرطة قد لا يتمكنون من إلقاء القبض عليهم وإن فعلوا فسوف يسوقونهم إلى السجن وقد يجدون وسيلة لتبرئة أنفسهم من التهم المنسوبة إليهم، وحتى إذا قضوا حياتهم بأكملها وراء القضبان فإن ذلك لن يشفي صدر "مارجريت".

أكثر ما أثار حيرتها في تلك الليلة المشئومة أن قواها خانتها .. كانت تلك القدرات التي تمتلكها تذهب وتأتي وفي بعض الأوقات تصل إلى ذروتها وفي أحيان أخرى تتلاشى إلى العدم، وحين تأتيها تلك القوى فإن "مارجريت" كانت تحكم سيطرتها عليها تمامًا ، وبمرور الأيام أخذت الفتاة تنمي قدراتها التي ولدت في الظلام وقُدر لها أن تبقى بين طياته .

كان جميع سكان القصر لا يزالون متأثرين بتلك الكوارث المتلاحقة وكان آخرها جريمة أمس، لذا أدهشتهم الحالة التي بدت عليها "مارجريت" في الصباح ، ما كان الطبيب "نزار" ليسمح لها بسهولة أن تبرح القصر بعد تلك الحال المذرية التي كانت عليها أمس، فقد كانُ مصرًا على أنها لم تشفى بعد وأن الحمى قد تعاودها من جديد، ولكن تحت وطأة عنادها آثر الاستسلام ، فهكذا فتاة لا يثنيها عن عزمها أحد.

بينما كانت "مارجريت" تشق طريقها إلى قصر رفيقها شعرت بأن رأسها خاوٍ تمامًا ، وللمرة الأولى منذ زمن شعرت بانعدام الحيلة لديها.

لا شك في أنها قبل الآن كانت تحلم بتلك اللحظة التي تقتص فيها من أولئك الأوغاد .. كانت تتخيل نفسها تقطعهم إربًا وتمزق أحشائهم، تضرم النيران في أجسادهم وتذرهم يحترقون كما أحرقوا قلبها.

لكن كل ذلك تلاشى وحل محله فراغ مخيف، جعل "مارجريت" تشعر بأنها وحيدة للغاية.

قابلها "جاسر" منتشيًا مختالاً كطاووس أحمق لكنها لم تعره اهتمامها ، كانت سابحة في ملكوت آخر هائمة على وجهها وسط ملايين الأفكار وسؤال واحد يراودها بقسوة : " والآن ماذا ستفعلين ؟ ".

إن أي خطوة ستخطو إياها "مارجريت" منذ الآن عليها أن تحسب لها ألف حساب، عليها ألاّ تدع الغضب يعمي بصيرتها ويهدم كل ما خططت له ، عليها ألاّ تخطو بنفسها نحو الهاوية، وأن تحذر من الوقوع في الشرَك الذي سيقودها إلى السجن، لا يمكنها أن تثق بـ "جاسر"، فهي إن قتلتهم أمام عينيه لتثأر لشرفها الذبيح ستكون تحت رحمته ويمكنه الإيقاع بها عند نشوب أي خلاف بينهما وإلاّ ستكون أسيرته للأبد.

هي تعلم جيدًا أنه لا يمكن الوثوق بشخص مثله فهو لا يقل سوءًا عن "رمزي".

فكلاهما يقوم بأعمال غير مشروعة ويتاجر بالأسلحة والممنوعات في الخفاء ويتستر تحت قناع رجل الأعمال الشريفة صاحب المشروعات الاقتصادية الذي يخدم المجتمع ، وكلاهما يتسلح بعلاقات مصاهرة مع النظام السياسي ورجال السلطة في مصر ليكون بعيدًا عن المسائلة.

وهي واثقة من أن يدي "جاسر" مخضبتان بدماء الأبرياء تمامًا مثل "رمزي" ، لكنه يفوقه خطورة لجموحه وحبه الجنوني لذاته الذي يصل إلى جنون العظمة ، وكذلك اعتماده على منصب والده الحساس الذي يمنحه حصانة وكون أمه دبلوماسية بالسفارة الأمريكية في القاهرة.. كل ذلك جعله يعتبر نفسه إلهًا من حقه التحكم في مصائر الآخرين.

كانت المرة الأولى التي وقعت فيها عيناه عليها حين جاء إلى القصر في واحدة من الزيارات المشبوهة التي تأتي لزوج عمتها تحت أستار الظلام لرجال خطرين محاطين بحرس مسلحين، بعضهم كانوا شخصيات عامة أو مسئولين من السهل التعرف عليهم لذا يلتحفون بالظلام وسياراتهم ذات الزجاج الداكن.

أعجبته وأصر أن يحصل عليها بأي ثمن، أما "مارجريت" فكانت تحتقره وتزدريه وتقابل ملاحقاته لها بالإهانات ، لكنها سرعان ما أدركت أن هذا الشاب الذي يكبرها ببضع سنوات ربما يكون الوحيد القادر على حمايتها من بطش "رمزي" وتحرشاته بها من آن لأخر كلما لعبت الخمر برأسه ، فهو يحسب له ألف حساب بسبب منصب والده وعلاقاته بالمافيا الأوروبية وأعتى رجال العصابات في مصر.

لم يستطع "رمزي" أن يبدي اعتراضًا أمام رغبة "جاسر" في الارتباط بالفتاة التي جاوزت ربيعها السادس عشر قبل قليل، بل اعتبر أن

الأمر الذي انتهى بينهما إلى الزواج فإن ذلك سيقوي من شراكته مع عائلة "جاسر" وعلاقته بالسلطة الحاكمة.

لم تكن مسألة القتل في حد ذاتها هي ما تخيف "مارجريت" فهي نشأت في عالم ملئ بالقتلة عديمي الرحمة، تزهق فيه الأرواح بلا ثمن، كان بمقدورها أن تقتل أن يرجف لها جفن، لكن المهم بالنسبة إليها ألاّ تخسر كل شيء وتواجه مصير السجن الذي طالما كان يخشاه "رمزي".

قادها "جاسر" عبر دهليز طويل نحو قبو تحت الأرض وقبل أن يفتح بابه كانت أصوات صرخات معذبة قد اخترقت أذنيها.

داهمها شعور بالغثيان والدوار حاولت إخفاءهما عن أعين "جاسر" حين وقعت عينيها على ثلاثة أجساد مشوهة، بالكاد تعرفت على أصحابها الذين بدوا وكأنهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وبدا الموت بالنسبة إليهم الخلاص الوحيد.

لم تكن بشاعة التعذيب الذي قاموا به تجاههم ما روعها ، لكنها ذكرتها بذكريات مؤلمة مضى عليها سنوات طوال لم تتمكن من محوها قط، تذكر حين احتجزها "رمزي" في قبو قذر ملئ بالجرذان والهوام وسط ظلام دامس طيلة شهر كامل، فما لاقته الفتاة ذات الإثنا عشر

ربيعًا في ذلك الوقت من تعذيب بعد أن حاولت الهروب لا يمكنها نسيانه.

حين أدُخلت الفتاة في تلك المقبرة المظلمة حسبت أنها لن تبرحها أبدًا، فكثيرون قبلها فتك بهم "رمزي" ودفنوا في ذلك المكان دون أن يعرفهم عن ذويهم شيئًا، لكن لسبب لم تكن تعرفه قرر الشيطان يفك أسرها بعد انتهاء ذلك الشهر وهو يحسب أنه قد انتهى من ترويضها تمامًا كما يفعل بكلابه التي حولها لوحوش مفترسة تتوق إلى التهام البشر، لكنه فرض عليها منذ ذلك الوقت حراسة تصطحبها أينما ذهبت وتضيق الخناق عليها، ولم يخلصها من الحصار أحد سوى "جاسر" الذي ظهر في حياتها بعد أربع سنوات من ذلك الوقت.

حين خرجت "مارجريت"من القبو كانت تبدو كالأحياء الأموات بملابسها الممزقة التي لوثها الوحل وشعرها المشعث، حتى أن جميع رجال "رمزي" أقسموا أن الفتاة أصابها مس من الجنون، لعلها لم تجن لكنها لم تعد تلك الفتاة التي ساقوا إلى هناك فقد ألفت الظلام !.

"هل أنتي بخير ؟" هكذا قال لها "جاسر".

مضت برهة من الوقت قبل أن ترد بغضب شيطاني مفتعل حاولت أن تخفي وراءه اضطرابها وأمواج أفكارها المتلاطمة، قائلة:

"ماذا فعلت ؟ "

عاد الصـمت الثقيل ليخيم من الجديد قبل أن يسـتوعب "جاسـر" ما قالته فتاته لتوها، فسؤالها هذا أصابه بصدمة حقيقية، كان يتوقع أن تشكره وتمسك بمسدسه لتردي ثلاثتهم قتلى، وقد لا تمتلك الشجاعة لفعل ذلك فتطلب من أن يقتلهم أمام ناظريها وإن كان يسـتبعد أن تفرط في هكذا فرصة للثأر.

كان يحلم ويمني نفسـه أن يحظى برضـا الفتاة التي أثارت جنونه لسنوات حاول فيها مرارًا أن يحصل على فرصة جلبها إلى فراشه، لكن محاولاته كانت تبوء بالفشل الذريع، لم يشأ أن يحملها عنوة على فعل ذلك، فهو لن يجازف بأن يجعل من نفسه عدوًا لـ"مارجريت" كما فعل "رمزي" الأحمق ، فرغم ولعه بها كان يراها غامضـة مخيفة يحاول دومًا أن يفك شفرات صندوق أسرارها، لكنه كلما توصل إلى حل لغز يجد نفسه سألها "جاسر" مندهشًا:

-ألم تطلبي مني أن أجلبهم لكي لتقتلينهم بنفسك ؟

-مارجريت بثقة مصطنعة – أقدر ما فعلته من أجلي، ولكن للأسف الشديد أنت مخطئ .. هؤلاء ليسوا هم.

-جاسر- ماذا تقولين ؟.. كيف ذلك ؟!. ولكنهم اعترفوا بجرمهم !.

-مارجريت- هل تمزح معي ؟!.. أتحسـب أن من ربيت على أيدي شـيطان مثل "رمزي" لا تعرف شـيئًا عن التعذيب وما يمكن أن يفعله

؟!.. شـــــيء طبيعي أن يعترفوا بما أردتهم أن يعترفوا بـه.. أكاد أجزم أنهم الآن يتوسلون طلبًا للموت.

-جاسر- حسنًا.. وما العمل الآن ؟

-مارجريت- فلنخرج من هنا أولاً وسوف أقول لك ما العمل الآن..

***

الفصل الثامن

"بئر الأسرار"

" كل يوم تزداد شـــكوكي في "مارجريت" .. أكاد أجزم أنها قتلته، لديها الكثير من الدوافع للقتل لكنها ليســـت دليل اتهام، وهناك ثمة أمر يحيرني في هذه المرأة ، إنها بئر عميق من الأســـرار، كلما حســـبت أنني وصلت إلى قاعه، أجد نفسي واهمًا وأن حدوث ذلك هو السراب بعينه.

أخشـى ما أخشـاه أن أغرق في هذا البئر قبل أن أصـل إلى نهايته.. "مارجريت" إلى أين تأخذيني ؟. "

هكذا حدث "بهاء" نفسه في حيرة.

كانت عقارب السـاعة تشـير إلى الثانية عشـر، بدت تلك الليلة أكثر دفئًا من الليالي السـابقة بعد انتهاء شـهر شـباط ، لذا لم يجد "بهاء" بأسًـــا في أن يجلس في الشـــرفة منتظرًا عودة "مارجريت" إلى البيت، بينما يتظاهر بقراءة كتاب.

أخذت الأفكار تتصـــارع بقوة في رأســـه والظنون تلعب بعقله.. أخذ يتسـاءل عن ما تفعله الفتاة بالخارج في ذلك الوقت من الليل، خاصـة أن الشتاء لم يعد أدراجه بعد رغم انسحاب البرودة اليوم.

تسـاءل بحيرة هل يمكن لامرأة عجزت عن حماية نفسـها بهذا الشـكل أن تكون قاتلة ؟!.

بين النفي والإيجاب والقلق والإشـــفاق كانت مشـــاعر "بهاء" تجاه "مارجريت"، تســـاءل لماذا أرادات إبعاد الشـــبهات عنه في جريمة لم يرتكبها بينما يسعى هو للإيقاع بها وإثبات تورطها ؟!.

تأكد في ذلك الوقت من أن لشـــخصـــية "مارجريت" جانب من التعقيد يستعصى على الفهم.

انتبه "بهاء" إلى صوت الساعة تدق معلنة الواحدة بعد منتصف الليل، لم يعد يطيق مزيدًا من الانتظار بعد أن تزايدت الشـــكوك في رأســـه، نهض مســـرعًا متجهًا إلى غرفة أخاه المنكب على أبحاثه الطبية والموسوعات الضخمة المكدسة على مكتبه.

أفزعت الطبيب الشـارد طرقات "بهاء" على باب غرفته فنهض مسـرعًا ليفتح الباب، ولدهشـــته أخبره أن الفتاة لم تعد بعد إلى البيت، كان "تزار" منشغلًا ولم يشعر بمرور الوقت.

بتلقائية قال الطبيب الأربعيني لأخيه :

أيعقل أن يكون قد أصابها مكروه ؟

-بهاء- لا أدري.. لكني لا أظنها حمقاء لتعرض حياتها للخطر بعد أيام فقط من الحادث.

لسـت أفهم لماذا لا تحترم تلك الفتاة تقاليد البيت الذي تحيا به .. من تحسب نفسها ؟.

-نزار- لا نعرف كيف كانت حياتها في القصـر قبل مجيئنا ، لذا عليك أن تتحلى بالحكمة فهذا ليس خطأ "مارجريت" بل خطأ عمنا.

-بهاء- ما العمل إذًا ؟.. أخشـــى أن تورط نفســـها وترطنا معها في مزيد من المتاعب.

-نزار- فقط أيقظ "مازن" ، فهو يعرف رقم هاتفها المحمول.. اتصـــلا بها.

بدا "مازن" قلقًا حين اســـتيقظ من نومه فهاجس أن يصـــيب الفتاة الطائشة سوءًا من جديد لا زال يؤرقه، لكنه لم يستطع أن يكبح جماح أفكاره الســـوداوية حين أجابه النداء الآلي بأن الهاتف المطلوب مغلق أو خارج نطاق التغطية.

كانت ساعة قد مضت قبل أن يمزق الصمت المطبق محرك سيارة من طراز "أودي" ذات زجـاج داكن اللون حجب عن الأنظـار مـا بـداخلهـا، خرجت "مارجريت" منها بخطى غير متزنة مجتازة بوابة القصـر ورائحة خمر قوية تفوح من أنفاسها.

وقف الثلاثة مشـــدوهين غير مصـــدقين لما تراه أعينهم، كانت "مارجريت" تتعثر في كل ما تقابله وقد أثملها شـــراب "الڤودكا" الذي سقاه لها "جاسر"، ولم تكتفي هي حتى دست محتوى زجاج نبيذ معتق في جوفها حتى فقدت صوابها تماماً.

ما إن تجاوزت الدرجات المؤدية إلى الردهة الواسعة حتى قطع طريقها "بهاء" والشرر يتطاير من عينيه الغاضبتين، لم يقل شيئًا فقط تبادلا نظرات حانقة قبل أن يرفع يمناه عاليًا ويهوي بها فوق صدغها.

ساد صمت ثقيل كالجبال و"مارجريت" ساكنة في مكانها بلا حراك، بينما الجميع يتبادلون نظرات حائرة.

فجأة تبدلت ملامح "مارجريت" فبدت كتنين ثائر، اســـتيقظ لتوه من ســـباته العميق، أطبقت بيدها على أحد التماثيل الخزفية وقذفته تجاه وجه "بهاء" مباشرة، تقول:

"فلتذهب إلى الجحيم إلى حيث عمك "

يبدو أن الحظ حالف "بهاء" في تلك اللحظات إذ نجا من مصير تهشم رأسه بفعل ذلك التمثال، لكنه غضبه تجاهها تعاظم حتى أنساه شفقته تجاهها بسبب الحادث، فقال لها بلا تردد:

"أيتها العاهرة !"

ولم يكد ينطق بتلك الكلمات فور تفاديه لقذيفة "مارجريت" حتى ثار غضب أخاه الأكبر الواقف بجوار "مازن" يراقب ما يحدث بدهشة، صاح بغضب حاول السيطرة عليه:

هذا يكفي .. ألم يعد لديكما احترام لأحد ؟.

أدرك "بهاء" أنه أخطأ حين تجاوز أخاه الأكبر ولم يلتزم بما قاله له حول التحلي بالحكمة في التعامل مع الفتاة، أما "مارجريت" المخمورة فلم تعر كلام الطبيب اهتمامًا يذكر، وأطلق سيلًا من السباب والألفاظ النابية فوق رأس وكيل النيابة الشاب، حتى أنها تمادت وأعطت للطبيب وابنه ولسكان القصر بمن فيهم الأموات نصيبًا من اللعنات والسباب، وكأن أبواب الجحيم قد فتحت على مصراعيها وأطلقت شياطينها باتجاههم.

أخيرًا خرج الطبيب عن صمته وقذف بالماء البارد في وجهها لجعلها تفيق من سكرها، ويبدو أنه نجح في الأمر، فالفتاة بدت كمن استيقظ من نومه للتو ليجد نفسه عاريًا وسط ميدان عام !.

قال لها بلهجة آمرة:

اذهبي إلى غرفتكِ واغتسلي.

ثم خاطب "مازن" قائلًا:

اطلب منهم إعداد فنجان قهوة لها لتفيق.

ثم التفت إلى الفتاة التي وقفت تحدق فيه واجمة، قائلاً:

حين تشربين قهوتك وتعودين لوعيك سيكون لي معكِ حديثًا آخر.

***

كان الماء يتدفق بغزارة على جسد "مارجريت" الناعس ويمحو معه آثار النبيذ الفرنسي، لكنه لم يكن قادرًا على محو آثار ليلتها الحمراء في فراش "جاسر".

انهمرت الذكريات الساخنة على رأسها لتمنحها مشاعر متلاطمة كموج البحر تتأرجح بين اللذة والندم.

لا تعرف سبب استسلامها له للمرة الأولى في حياتها، ولا تدري هل حطم اغتصابها ما لديها من إرادة أم أنها تعبت من كثرة المقاومة ؟!.

في تلك اللحظات شعرت بأن حاجتها إليه فاقت حاجته إليها بكثير فقط لتشعر بأنها لا تزال على قيد الحياة.

أرادت أن تهرب من ماضيها الأليم وواقعها البائس والخوف من القادم وروائح الدم والموت وكوابيسها وذكرياتها المطاردة لها منذ سنوات.

بدت يائســة للغاية حين اضــطرت للكذب عليه مدعية بأن المجرمين الثلاث الذين كانوا في قبضـته ليسـوا هم الجناة أنفسـهم، كي لا تورط نفسـها في مزيد من المتاعب، مفضلة أن تؤجل ثأرها إلى وقت لاحق، طلبت منـه أن يـأمر رجالـه بـأن يعصـــبوا أعينهم ويلقون بهم عند الطريق الصـــحراوي، زاعمة بأنها لا تريد أن تســـبب بموت الأبرياء، لكنها شـعرت بشـيء من تأنيب الضـمير تجاه رفيقها الذي أنقذ حياتها وأخذ بثأرها.

تمنت لو أنها تنسـى معاناتها لبضـع سـاعات وإلاّ سـتمسـك بمسـدس "جاسر" وتفرغ رصاصاته في رأسها لترتاح من عناء الذكريات.

حين انتهت من الاغتســال بدا كل شــيء بالنســبة إليها غير منطقي بالمرة وكأن تلك الليلة لم تكن !.

ودت لو أن هـذه الليلـة تنتهي، فهي لم تعد تعرف مـا عليهـا قولـه للطبيب الكهل، فمن المؤكد أنه ســيســألها أين كانت ومن المؤكد أنه سيمطرها بوابل من التوبيخ.

يمكنها بالطبع أن توقفهم جميعًا عن حدهم وأن تكرر فعلتها كل ليلة ، لكن ليس هذا ما تريده حقًا، فهذه هي المرة الأولى منذ رحيل عمتها التي شـعرت فيها بأن لديها أسـرة تهتم لأمرها، فهي لن تنسـى أبدًا ما فعلوه لأجلها وهي مريضـة، لن تنسـى أيضًـا تلك الليالي التي قضـاها

الطبيب وابنه يداويانها وهي محمومة، حتى "بهاء" كان يأتي ليطمئن عليها حين يحسبها نائمة.

ولسبب لا تعرفه شعرت بسعادة خفية حين تذكرت كيف صفعها على وجهها بعد أن عادت إلى البيت ثملة، ربما شعرت بأنها تستحق تلك الصفعة !.

كانت "مارجريت" تقدم ساقًا وتؤخر أخرى وهي تتجه صوب غرفة "نزار"، شعرت بأنها تحمل أثقال العالم فوق ظهرها.

بتردد طرقت الباب.. تنتظر للحظات قبل أن يخرج الطبيب مرتديًا نظارته الطبية التي لم تخفي إرهاقه المشوب بالغضب المكتوم، لم يدعوها للدخول كما توقعت لكنه اصطحبها للجلوس في إحدى غرف استقبال الضيوف.

نثر الصمت عباءته للحظات قبل يمزقها "نزار" قائلًا:

- ما الذي يحدث لكي ؟

-مارجريت بصدق- حقيقة لست أدري ما الذي يجري لي، إنها المرة الأولى التي أقدم فيها على هكذا حماقة، رغم أن عمكما كان يحتسي الشراب حتى الثمالة، لكني لم أفعل ذلك قط.

-نزار- وما الذي غيّرك ؟

-مارجريت – ألا تدري ؟ .. هل تحسب أن ما مررت به كان سهلًا ؟.. لو لم أثمل الليلة لكنت قد قتلت نفسي بكل تأكيد.

-نزار- تقصدين تلك الحادثة ؟

-مارجريت- ليس ذلك فحسب، أنت لا تعرف كيف عانيت في حياتي، كل ما في الأمر أنني سأمت كل هذا.

-نزار- لقد أصبحنا بمثابة عائلتك، علينا أن نتشارك أحزاننا. أخبريني ما الذي يؤرقك لعلي أساعدك.

-مارجريت- ليتك تستطيع يا دكتور.. لا أحد يستطيع. ما مضى قد مضى ولا أحد يستطيع تغير الماضي.

-نزار- كل مشكلة ولها حل وما تعرضتِ له ليس نهاية العالم، صدقيني في البداية يكون الأمر قاسيًا لدرجة يصعب معها تصديقه، لكن سرعان ما نكتشف أنها ليست النهاية.

-مارجريت- وكأنك تتحدث عن وفاة زوجتك والدة "مازن" رحمها الله.

-نزار- كيف عرفتِ ؟!

-مارجريت- "مازن" أخبرني.. كانت سيدة عظيمة، كنت أعدها أمي.

-نزار- ماذا عن أمك الحقيقية ؟ هل توفيت أيضًا ؟.

-مارجريت- لست أدري فأنا لم ألتقِ يومًا بتلك العاهرة الروسية التي أنجبتني وألقت بي وأنا رضيعة في المهد عن عمتي رحمها الله، لم تعد أبدًا.

-نزار- آسف من أجلك، لكن لابد من أنك ستلتقين بها يومًا ، ولكن لا يصح أن تتحدثي عنها بسوء فهي أمك قبل كل شيء.

-مارجريت- إنها سبب تعاستي ، هي من تركتني وحيدة أصارع هنا.

-نزار- ما الذي فعله بكِ عمي يا "مارجريت" ؟.. ما الذي تخفيه عنا ؟.. أشعر بأن سبب تعاستك ولا أدري سبب ذلك .

-مارجريت- لا تتعجل الأمور.. فلكل وقتٍ آذان.

****

كانت ليلة غير اعتيادية قضاها سكان القصر بعد فضيحة "مارجريت" وشجارها مع "بهاء"، لا أحد يعرف كيف مرت بسلام.

وفي الصباح الباكر انتزع رنين الهاتف المحمول "بهاء" من سباته المتقطع .

بتكاسل نهض الشاب الذي تجاوز عامه الثامن والعشرين من نومه، أجاب بصـــوت ناعس يبدو عليه الانزعاج ، جاءه صـــوت صـــديقه "هاني" قائلاً:

ألا زلت نائمًا .. إنها السابعة صباحًا.-

-ماذا تريد في هذا الوقت المبكر ؟

-هاني- اسمعني جيدًا.. هنالك جريمة جديدة.

-بهاء ينهض مذعورًا وهو يقول: أين ؟ هل تقصد القصر ؟

-هاني- لا . لقد عثرت الشـــرطة على ثلاث جثث قرب طريق القاهرة – الفيوم الصحراوي مساء أمس.

-بهاء- وما علاقة هذا بي ؟

-هاني- أظن أن الأمر مرتبط بالجريمتين السابقتين.

-بهاء- لكنهما وقعتا هنا في قصرنا بالتجمع الخامس ولست بحاجة لأشرح لك كم تبتعد عن موقع الجريمة الجديدة.

-هاني- ولكن طريقة القتل تبدو نفسها التي قُتل بها الضحيتين السابقتين.. إنها نفس العلامات والرموز إلاّ أن الضحايا الجدد تعرضوا لأنواع من التعذيب قبل وفاتهم.

-بهاء- اسمح لي يا صديقي أن أقول ل كان ما تقوله هو جنون.

-هاني- إذًا تعالى إلى مكتبي لتعرف أنه ليس جنونًا.

***

لم تكن ليلة أمس سهلة على الجميع؛ لذا نهضوا جميعًا في وقت متأخر وخاصة "مارجريت" التي قضت النهار بأكمله نائمة في فراشها تحت أغطيته الوثيرة؛ عدا "بهاء" الذي لم يستطع أن يحذو حذوهم ويستمتع بالنوم اللذيذ بسبب مكالمة صديقه الغريبة.

كان عليه أن يذهب مجددًا إلى المشرحة ليشاهد بعينيه جريمة أشد قسوة من سابقتيها.

وانتهز فرصة وجوده هناك لينتهي من إجراءات الإفراج عن جثمان عمه والحصول على تصريح بدفنه.

وفور أن انتهى من تلك الإجراءات الروتينية عاد إلى مكتب صديقه "هاني" ليناقشا معًا تطورات القضية التي تزداد غموضًا يومًا بعد يوم.

الفصل التاسع

"صندوق الرسائل القديمة"

كلمات "مارجريت" ليلة أمس لم تزل عالقة في ذهن "تزار"، أصـــبحت فكرة أن عمه قد آذى تلك الفتاة بطريقة ما حاضرة بقوة في ذهنه، لذا حسم الطبي الأربعيني أمره وقرر الدخول إلى غرفة مكتب عمه محاولًا العثور على طرف خيط يدله على شيء يتعلق بعالم عمه السري.

قضى ساعات في تفحص تلال من الأوراق، لكن صندوقًا صغيرًا لفت انتباهه فقرر أن يفتحه محاولًا اكتشـــاف ما يخفيه ذلك الصـــندوق الخشبي بين طياته.

ولدهشـــته عثر على مجموعة من الرســـائل القديمة، أربعة منها كُتب عليها اســم المرســل "آدم يســري".. إنه نفس اســم والد "مارجريت" ، وجميع الرســائل كانت مرســلة إلى الســيدة "ترجس" عمتها ، وهنالك رســـالة من جامعة أريزونا الأمريكية يبد أن مُرســـلها أســـتاذًا جامعيًا يدعى "براون سميث".

تســـاءل لماذا يحتفظ عمه برســـائل زوجته الراحلة التي أرســـلها لها شقيقها المتوفى ؟

ألم يكن يجدر به تركها لـ"مارجريت" فالأمر يخصها أكثر منه ؟

قرر أن يقرأ محتوى تلك الرســـالة لعله يفهم ســـر آلام تلك الفتاة الغامضة، لم تكن الرسائل طويلة وكانت رسائل والد "مارجريت" مكتوبة بخط اليد على عكس الرسالة الجامعية.

الرسالة الأولى

"لست أدري ما الذي أصاب زوجتي ؟!.. كأنما لعنة قد أُلقيت عليها أو أن روحًا شريرة قد تملكتها وأسرتها.. أعلم أن ما سأرويه لكِ يا أختي ستعتبرينه هراءًا ولن تصدقي أبدًا حتى ترين بعينيكِ كيف آلت الحال بزوجتي الجميلة "ناتاشا" التي أخذت تذبل شيئًا فشيئًا، وبدت كالعجائز بعد أن خاصمت الطعام والشراب وهجرها النوم، وباتت تهذي بكلام غريب حتى خشيت أن تُقدم على فعل أحمق؛ فقررت عرضها على الأطباء لكنه شعروا بالحيرة تجاه حالتها ورجحوا أن للأمر علاقة بحملها، فربما تكون مصابة باضطرابات هرمونية سببت لها اكتئابًا حادًا وتطور الأمر لديها ليصل لحد الهلوسات؛ لكن عقاقيرهم لم تنهي الأمر قط وأخذت حالتها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم !.

سوف نغادر باريس التي كانت حلم حياتها فهي على أي حال لم تعد تمارس عرض الأزياء منذ حملها، سوف نرحل إلى روسيا فهي بحاجة إلى أن تكون وسط عائلتها."

أخيكِ

***

الرسالة الثانية

"صـــلي لربك وادعيه أن يخلصـــنا من هذا الكابوس.. بالأمس حاولت "تتاشـــا" أن تجهض حملها ، ولولا العناية الإلهية لكنت فقدتها وفقدت الطفل.. الحمد لله الأطباء تمكنوا من إنقاذ الحمل؛ لكنها لن تتوقف عن محاولاتها للتخلص منه.

إنها تدخن بكثرة وتحتســـي الخمر بغزارة، كل محاولاتي لإخفاء تلك السموم بعيدًا عنها باءت بالفشل، عندما أغضب وأصيح في وجهها تبكي وتقول إنها تريد أن تموت !.

إنها خائفة للغاية وتظن أن الطفل القادم سيؤذيها، رغم أنها من تؤذيه بتصرفاتها الطائشة تلك.

لا أفهم ســـر خوفها منه .. إنها تســـتمر في رؤية كوابيس حول ذلك الجنين، تعتقد أنها طفلة ملعونة ستجلب الشرور إلى ذلك العالم !.

الغريب يا أختي أن زوجتي أصـــبحت قادرة على التنبؤ بالأحداث والمصائب وتصدق تنبؤاتها وهذا أمر جديد عليها ؛ فطيلة معرفتي بها وطوال مدة زواجنا لم يحدث ذلك من قبل، كأن الأمر مرتبط بتلك الحالة التي أصابتها !.

إحدى قريباتها تقول إنها باتت مسكونة من قبل أرواح شريرة !.. هل تصدقين ذلك ؟!."

أخيكِ

***

الرسالة الثالثة

" أختي العزيزة أشعر بالوحدة والضياع التام.. أشتاق لكي كثيرًا..

يؤسفني أن أبلغي أن الأطباء قرروا إرسال "تاشا" إلى مصحة نفسية ؛ فحالتها النفسية المتدهورة وإدمانها للشراب باتا تشكّلان خطرًا على حياتها وحياة الجنين.

قبل يومين أحضـــرت قريبة زوجتي وســـيطة روحية * لتطرد الأرواح التي زعمت وجودها ، لكن أحداثًا غريبة وقعت ، كما أن حالة زوجتي ازدادت ســـوءًا، تلك المشـــعوذة قالت إنها لم ترى شـــيئًا كهذا طيلة حياتها!. "

أخيكِ

***

*** الوسيط الروحي: هو الشخص الذي لديه القدرة على الاتصال بالعالم الآخر من الأرواح أو عالم الجن، حسب رأي علماء الباراسايكولوجي، حيث اكتشفوا إن الإنسان الممسوس بالجن لديه قدرات خاصة للاتصال بعالم الأرواح، فتظهر عليه بعض هذه الصفات نتيجة مس الجن، ولذلك يطلقون عليه اسم (الوسيط)، لأنه أصبح وسيطا بين عالمي الجن والإنسان، وكل وسيط له قدرة خاصة معينة أو أكثر، فمنهم من يستطيع الاستقصاء عن أشخاص مجهولين ومعرفة أماكنهم، ومنهم من لديه قدرة الاستبصار عن بعد، وغيرها من القدرات، وتزيد وتقل هذه القدرات مع مرور الزمن.**

الرسالة الرابعة

عزيزتي نرجس :

" قبل أيام وضعت زوجتي طفلة فائقة الجمال ، أسميناها "مارجريت" .. إنها تشبه أمها كثيرًا.

لم أخبركِ أن صحة "تاشا" قد تحسنت كثيرًا وأصبح بمقدورها أن تغادر المصح النفسي، لكن الشيء الوحيد الذي يؤرقني هو أنها ترفض الاقتراب من الطفلة ، لكني أظن أن هذا وضع مؤقت فما مرت به لم يكن بالأمر الهين. "

أخيكِ

***

الرسالة الخامسة

جامعة أريزونا

الولايات المتحدة الأمريكية

السيدة الفاضلة نرجس /

تحية طيبة وبعد ؛

" وصـلتني رسـالتك ولقد أثار مضـمونها اهتمامي ، يبدو أن قريبتك تمتلك قدرة على الاسـتبصـار* مثيرة للاهتمام ، لكن وفقًا لروايتك فإن قوى تلك الطفلة قد تصبح جامحة للغاية.

لا أسـتطيع أن أجزم بشـيء قبل أن ألتقي بها وأجري عليها العديد من الأبحاث.

أتطلع إلى أن تقوما بزيارتي في القريب العاجل. "

تحياتي

د/ براون سميث

***

• الاستبصار: هو القدرة علي رؤية أشياء غير موجودة و غالبًا تكون رسائل من المستقبل أو من عوالم أخرى، الأشخاص الذين لديهم القدرة علي الاستبصار يكون لديهم قدرة علي رؤية طاقات روحية و رؤى مستقبلية بالعين المجردة أو بالعين الثالثة "العين الخيالية العقلية".

***

حين انتهى "نزار" من قراءة الرسائل الخمس جلس للحظات مندهشًا لا يحرك ساكنًا، فما قرأه كان عصي على التصديق .

قرر ألّا يخبر "مارجريت" شيئًا عن تلك الرسائل قبل عودة "بهاء" فهو يخشى أن ذلك الأمر قد يزيد من حالتها النفسية سوءًا بعد كل ما مرت به خلال هذا الأسبوع القاسي، لكن يبقى من حقها الاحتفاظ بتلك الرسائل وليس من حقه أن يحجبها عنها.

وفي المساء كانت مراسم جنازة "رمزي" قد انتهت بدفنه في أحد قبور مقبرة العائلة بحديقة القصر، بعدما حرص "بهاء" على أن يتم ذلك في هدوء بعيدًا عن عدسات الصحافة والإعلام، فالأمر لا يقتصر على مقتل رجل أعمال ثري بل هناك أيضًا سلسلة الجرائم الغامضة تلك التي ستكون مدة خصبة للصحفيين إذا وقعت في أيديهم أي معلومات عنها، خاصة أن عائلته لا ينقصها المزيد من المتاعب، وهو لا يريد

أن يتم التشهير بعمه بأي شكل كان بل يريد له أن يرقد في سلام، لذا لم يحضر المراسم أحد سواه هو وأخاه وصديقه "هاني" والحانوتي الذي دفن الجثمان وشيخ مغمور أحضره "بهاء" ليتلو القرآن على روح عمه ويدعو له.

وفي تلك الأثناء وقفت "مارجريت" تراقب ما يجري من خلف إحدى نوافذ القصر وملامح وجهها لا تشي بالسرور ، انتزعها من بين بنات أفكارها اتصال "جاسر" بها عبر هاتفها المحمول.

بتكاسل ضغطت على الزر وأجابته بصوت ناعس، سألها عن أحوالها فأخبرته أنها تشعر بالسوء تجاه قيامهم بدفن قاتل عمتها مع في نفس المقبرة، حتى أن الأخوان أرادا دفنه في قبر ملاصق لعمتها لولا تدخلها وإصرارها على أنها لم يكونا على وفاق وأن عمتها لن تكون مرتاحة في قبرها في هكذا وضع.

أراد أن يواسيها فقال لها:

– أنتِ تحمّلين نفسكِ فوق طاقتها ، لقد دفنتِ سر قتله لعمتكِ في قلبكِ لسنوات ولم تخبريه لشخص عداي لأساعدكِ على الانتقام منه ، لا بأس في أن تبوحي ببعض آلامك فهو القاتل على أي حال وأنتي وعمتك من ضحاياه.

–مارجريت – لا أريد أن أضيف لهم سببًا جديدًا لاتهامي بقتله.

قال محاولًا تغيير مجرى الحديث :

– على أي حال أردت أن أقول لكي أن ليلة الأمس كانت رائعة .. لم أشعر بشعور مماثل منذ زمن.

– مارجريت– أنا أكيدة من حياتك لا تخلو من مغامرات عاطفية مع نساء غيري فلا تحاول الإنكار.

– جاسر ضاحكًا: لكنكِ يا حلوتي الأجمل والأقرب إلى قلبي من بينهن.

– مارجريت– وماذا بعد ؟.. أخبرني إلام ترمي بمغازلتك لي ؟

– جاسر– ألن تتكرمين وتمنحيني ليلة أخرى نقضيها معًا ؟

– مارجريت تضحك ضحكة صاخبة بينما تطفئ سيجارتها التي تحولت معظم أجزاءها إلى رماد، ثم تقول له:

– هذا في أحلامك يا عزيزي.. لقد تسبب الأمر لي في المتاعب، بدوت كساقطة خرقاء وتشاجرت مع الطبيب وأخاه الأصغر الذي صفعني وكدت أقتله.

– جاسر غاضبًا– كيف يجرؤ ؟! .. من يحسب نفسه ؟! .. سوف أتصرف معه بطريقتي.

– مارجريت– لا عليك لقد حُلت المشـــكلة بيننا.. والآن وداعًا لأنهم انتهوا من المراســـم ويتوجب عليّ التحدث إلى "نزار".. قال إن هناك أمرٌ هام يخصني.

خابت توقعات " مارجريت" فالطبيب لم يصـعد إلى الطابق العلوي حيث تقف هي بالقرب من غرفته ، بل اصـطحب أخيه الأصـغر إلى غرفة "رمزي" التي كانت مغلقة منذ وفاته.

راودتها الشـكوك فهبطت الدرج وأخذت تتسـلل على أطراف أصـابعها نحو باب الغرفة المغلق .. حاولت أن تسـترق السـمع لتعرف ما يدور من همس خلف الباب، لكن الأصوات جاءتها مبهمة غير واضحة.

وفي الداخل جلس "بهاء" يقرأ الرســـائل التي عثر عليها أخاه وعندما انتهى من قراءتها قال له "نزار" :

– لا شك أنك مندهش .. وإليك الصاعقة الكبرى .. عثرت على أوراق تفيد بأن والدة " مارجريت" حاولت إغراقها في حوض الســـباحة وهي رضـيعة ولولا أن أشـخاص لاحظوا ذلك وقاموا بإنقاذها لكانت قد ماتت ، وبعد ذلك قبضـت الشـرطة على الأم ووضـعتها في مصـح عقلي وتقرر فصـلها عن حضـانتها بأمر قضـائي عقب الحادث، وتم إيداع " مـارجريت" لـدى إحدى دور رعايـة الأطفال الأيتـام بعد وفاة والدها في

حادث سير، حتى ربحت السيدة "ترجس" بصفتها عمتها الوحيدة دعوى قضائية انتقلت بموجبها حضانة الطفلة إليها !.

- بهاء- أي نوع من الأمهات تلك التي تُقدم على قتل رضيعها.. لا أستطيع تخيل سبب واحد يدفعها لذلك، لابد أنها فقدت عقلها تمامًا.

- نزار- كانت عارضة أزياء روسية شديدة الجمال وكانت الحياة تبتسم لها في ذلك الوقت وهي تصعد أولى خطواتها نحو الشهرة وتحلم بالعمل في "باريس" ، عندما التقت بوالد " مارجريت" وهو رجل أعمال مصري أحبها ووعدها بمساعدتها على تحقيق حلمها فلم تتوانى عن قبول الزواج منه واستمرت في العيش بمثالية معه حتى أصبحت حبلى فبدأت تهذي وتهلوس وأدمنت الشراب ولم تجدي محاولات زوجها لإنقاذها.

- بهاء- لعلها كانت تحمّل الطفلة مسئولية ما جرى لها.

- نزار- هل سنطلع " مارجريت" على تلك الأوراق ؟

- بهاء- نعم .. أرى أن من حقها أن تعرف الحقيقة لتأخذ حيطتها من تلك المرأة المجنونة فربما عاودت الظهور في حياتها محاولة قتلها .. من يدري ؟!

كانت أذني " مارجريت" قد التقطت كلمات "بهاء" الأخيرة التي قالها وهو في طريقه للخروج من الغرفة فأسرعت مبتعدة عن الباب متظاهرة بأنها كانت تعبر الممر بالصدفة، لكن عقلها كان منشغلًا بحديثهما عن المرأة المجنونة التي ربما تحاول قتلها.

لمحها "بهاء" حين خرج من الغرفة التي لطالما حوت بين جدرانها ألد أعداء " مارجريت" .. تردد للحظات قبل أن يناديها ، لكنه في النهاية استجمع قواه وقرر أن يجازف بذلك فهو لا يدري كيف ستكون ردة فعلها بعد ما جرى بينهما أمس وسخطها عليه وأخاه حين حاولا دفن عمهما إلى جوار عمتها.

فور أن ينطق باسمها تتوقف عن الحراك وتحرك رقبتها ببطء ملتفتة إليه وهي تتظاهر بأنها لا تكترث لنداءه رغم أنها تحترق شوقًا لمعرفة ما كانا يتهامسان به هو وأخاه.

انتظرت حتى اقترب منها حتى قالت بنبرة جامدة:

– هل ناديتني ؟

– بهاء– نعم .. هناك أمور هامة يجب أن تطلعي عليها.

– مارجريت– ما هي إذًا ؟

– بهاء– لا يمكننا أن نتحدث هنا في الممر فقد يسترق أحد السمع.. هل تمانعين أن تسيري برفقتي في الحديقة بينما أطلعكِ عليها ؟

– مارجريت– لا بأس

"بهاء" وقد بدأ بالسير إلى جوارها قائلاً:

– قولي لي هل لازلتِ غاضبة عليّ بسبب ما فعلته بكِ أمس ؟.. أدرك أنه ليس من حقي أن أفعل ما فعلته فأنا لا أنتمي إليكي بصلة قرابة ، ولكن أقسم لكِ أن السبب الوحيد لما فعلته هو خوفي عليكِ.. أعرف أنني فقط وصلت إلى هنا منذ أسبوع ، لكن كثير من الأشياء وقعت وجعلتني أغير وجهة نظري تجاهك ، كما أنني لا أريد أن يصيبكِ مكروه مرة أخرى.

– مارجريت– لم يجرؤ أحد من قبل على فعل ما فعلته أنت .. فهل تظن أنني سعيدة بتصرفك الوقح ؟.

– بهاء– أعتذر منكِ.. لكن لا تنسي أنكِ من عاد إلى البيت ثملة في وقت متأخر وحاولتِ تحطيم رأسي وأعطيتني نصيبًا هائلًا من الشتائم!.

– مارجريت– دعنا نتخطى الأمر وأخبرني بما أردت إطلاعي عليه.

– بهاء متلعثمًا– حسنًا ولكن عديني ألاّ يؤثر الأمر عليكِ بالسلب .. هناك رسائل من والدكِ إلى عمتكِ عثرنا عليه وسط أشياء عمي ، كنا سنتخلص منها لكننا فضلنا أن تحصلي عليها وتقرري بنفس مصيرها.. نعتذر منكِ إذا كنا قد اخترقنا خصوصياتك.

– مارجريت ساخرة– لا بأس فأنا معتادة على ذلك منذ وصولكم.

خلف زجاج نافذة غرفة وقف "مازن" يراقب " مارجريت" التي خرجت من القصر برفقة عمه متجهان نحو الحديقة، كان ملامح تشي بغضبٍ خفي خالطه القلق، تساءل عن السبب الذي جعلهما يتنزهان في حديقة القصر وسط أشجارها الشاهقة وقد لفتهما عباءة الليل بظلامها الدامس ؟.

أخذت الظنون تصول وتجول في عقله مخلفة وراءها فوضى عارمة ، شعر بالدهشة للتحول المفاجئ في علاقتهما فعادة لا يطيق أحدهما الآخر، خاصة أن "بهاء" كان يتهمها بقتل عمه.

كما أنه لم ينسى شجارهما العنيف ليلة أمس.

فجأة خطر في باله خاطر مفاجئ.. ترى هل "بهاء" واقع في حبها ؟

بدا له ذلك الاحتمال قويًا عندما تذكر غضـــبه لتأخر " مارجريت" في العودة إلى المنزل وتلك الحالة التي كانت عليها.. فلعله صـــفعها لغيرته عليها !.

وقبل أن يفيق "مازن" من شـروده واسـتنتاجاته كان الاثنان قد اختفيا عن الأنظار خلف الأشجار الكثيفة.

وفور أن لمســت " مارجريت" بأناملها تلك الرســائل التي أعطاها لها "بهاء" بوجل حتى تغيرت ملامحها وأصـــابها شـــحوب شـــديد.. كان جسدها باردًا للغاية وقد تصببت عنها قطرات عرق باردة وأخذ صدرها يعلو ويهبط بقوة.

داهمتها رؤيا لكنها كانت أقوى من أن تتحملها.. رأت "تاشـا" تمسـك بطفلة رضيعة وتهمس في أذنيها قائلة:

"أنتِ لعنة يا " مارجريت" .. سـامحيني يا عزيزتي فسـتفسـدين حياة الجميع كما أفســـدتي حياتي.. لذا يجب أن تموتين .."، ثم تقوم بإلقاءها في حوض السباحة .

تشعر " مارجريت" بالماء يتدفق إلى رئتيها ويضغط عليهما حتى تكادا تنفجران .

يصل إلى مسامعها أصوات بعيدة تقول:

"ماذا فعلتي يا ناتاشـــا ؟ .. فليغطس أحدكم إلى الماء ربما تكون الطفلة على قيد الحياة "

الأصوات تبتعد أكثر وأكثر وهي تهوي إلى القاع.

كان "بهاء" في تلك اللحظات قد وقف مشـــدوهًا وهو يرى ما يحدث للفتاة من أعراض غريبة ظهرت عليها فجأة قبل تفقد وعيها تمامًا.

كان خائفًا لا يدري ما عليه فعله.. حملها بين ذراعيه وخطا بها بضعة أمتار لكنه توقف حين شـــعر بأن صـــوت أنفاســـها العالية قد انقطع تمامًا.

بحرص وضعها على الأرض وتذكر ما علمه له أخاه في الماضي عن كيفية إجراء تنفس صـــناعي خاصـــة بعد لاحظ ازدياد الشـــحوب على وجهها والذي اختلط بشـــيء من الزرقة فقام بإعطائها قبلة الحياة لينعش رئتيها من جديد.

بعيدًا وخلف زجاج النافذة كان "مازن" لازال واقفًا حين رأى عمه يحمل الفتاة التي طالما كان يحبها سـرًا ولدهشـته شـاهده يضـعها أرضًـا ويقبلها .. هكذا بدا له تحت أستار الظلام وبسبب تلك العتمة التي لم تنجح في تبديدها مصابيح القصر لم يستطع تبين حقيقة الأمر، فكل ما جال بفكره أن عمه يطارح فتاته الغرام !.

حين أفاقت " مارجريت" من غيبوبتها القصيرة أجهشت ببكاء مرير لم يسبق لها فعله منذ وفاة عمتها ، فضمها "بهاء" إلى صدره برفق وقد غمره شعور بالشفقة من رأسه حتى أخمص قدميه.

أما هي فقد استسلمت لعناقه لها وتربيته على رأسها فقد كانت في حالِ مذرية .. قال هامسة بصوت متقطع:

"خفت كثيرًا.. كنت سأموت.. أمي تحاول قتلي.. تقول بأنني لعنة !.. هل أنا حقًا لعنة يا "بهاء" ؟"

سعلت مجددًا قبل أن تستسلم لأصابعه التي تمسح على رأسها وظهرها، و"بهاء" لا يصدق ما جرى .. كيف لها أن تعرف بمضمون الرسائل بدون أن تقرأها ؟.. كيف عرفت بأمر أمها إذًا ؟ وما الذي جعلها تفقد وعيها هكذا ؟!

تذكر خطاب البروفيسور الأمريكي لعمتها وحديثه عن قريبتها صاحبة القدرات النفسية الخارقة القادرة على الاستبصار.. لا شك في أنه قصد بها " مارجريت".

سألها إن كانت قادرة على السير على قدميها إلى القصر ليفحصها الطبيب ليتأكد من سلامتها فأجابته بأنها على ما يرام فقط تشعر ببعض الخدر في جسدها، فأخبرها بأنه يمكنها أن تتكئ عليه حتى

يصـــلان إلى غرفتها، لكن عليها أن تجلس هنا وتنتظره قليلًا حتى يعود لجمع الأوراق التي سقت منها حين إغماءها .

لم يستطع "نزار" أن يعرف سببًا محددًا لما أصابها ، لكنه أعطاها دواءًا على أي حال ونصحها بالذهاب غدًا للمشفى لإجراء فحوصات طبية خاصـــة بعد الحالة الصـــحية الســـيئة التي كانت عليها عقب الحادث.

أما "مازن" فلم يصـــدق رواية "بهاء" حول إغماء " مارجريت" وتوقف رئتيها وإجراءه تنفسًا اصطناعيًا لها ، لكنه أخفى شعوره في أعماقه وعزم في نفسه أمرًا.

***

الفصل العاشر

"أحزان مارجريت"

الشـــعور باليتم يغمرها والحزن ينبش بأنيابه روحها ويدمي فؤادها.. غضبها يتعاظم والشعور بغصة مريرة يطبق على حلقها ويتغلغل إلى مسام جسدها، ذلك الجسد النحيف المنهك الذي يتأرجح بين عالمي الحياة والموت.

منذ أن جاءت إلى الدنيا والمصـــائب تلاحقها كظلها حتى باتت لعنة تلتصق بها .

كلمات والدها تتحول إلى أشباح تطاردها وتكاد تفقدها صوابها.

لا يزال مذاق الماء الذي حاول أمها إغراقها فيه عالقًا في فمها مخلفًا مرارة ستعجز السنون حتمًا عن محوها.

في الماضـــي كانت تراها امرأة أنانية هربت متخلية عن ابنتها الوحيدة لاهثة وراء الشهرة وعالم الموضة ، أو لعلها عشقت رجلًا آخر.. هكذا فسرت " مارجريت" تخلي أمها عنها، نعتتها بالساقطة، اعتبرتها ميتة وحاولت نسيانها كأنها لم تكن يومًا.

ولكن كان هناك سؤال يراود " مارجريت" .. لماذا عساها تهرب تاركة وراءها تلك الثروة والأملاك التي ورثتها عن زوجها ؟!

لماذا لم تحصل على نصيبها من الإرث ؟

ظنت أن شـــيء ما قد حدث وجعل والدها يوصـــي بحرمان الأم من الميراث ، لكنها لم تعثر على أي وصـــية من والدها ؛ فآثرت أن تتجاهل الإجابة على تلك التساؤلات فهي لن تشكك في كلام عمتها، لم تعرف بأن العمة أشـفقت عليها من الحقيقة وأخفت تلك الرسـائل كي لا تضيف معاناة جديدة إلى سلسة مآسي حياة ابنة أخيها.

***

في تلك الليلة لم تعاني " مارجريت" وحدها من الأرق الشديد ؛ فهناك شخصان أيضًا في ذلك القصر قضيا ليلتهما يفكران فيها، أحدهما ساخط عليها، الآخر يتذكر ما دار بينهما الليلة والدهشـة لم تبرحه قط.

لكن رغم كل شيء أشرقت شمس اليوم التالي تنبئ بنهار دافئ بشكل استثنائي ؛ فالبرودة لم تنقشع بعد بشكل كلي والشتاء لا يزال مستمرًا على أي حال.

في ذلك النهار المشـــمس تناولت " مارجريت" للمرة الأولى الإفطار برفقة العائلة الصـغيرة التي تشـاركها القصـر، لاحظت أن "مازن" لم يكن يتحدث إليها بشكل متعمد؛ لكنها تجاهلت ذلك فهي تعرف طبيعته الصبيانية وحساسيته الزائدة وتعرف أنه سرعان ما سيعود لطبيعته عما قريب.

وفي تلك الأثناء توقف الطبيب عن تناول طعامه فجأة وتنقّل بعينيه بين وجوههم ، قال:

• هناك شيء أريدكم أن تعرفوه.. سأضطر للسفر فجر الغد .. عليّ حضور مؤتمر طبي هام في أمريكا .. هل تحتاجون لشيء أجلبه لكم معي عند عودتي ؟

• مازن منزعجًا : وهل ستتركني هنا ؟

• نزار– عزيزي لن أمكث هناك أكثر من أسبوع .. لا بأس يمكنك الاعتناء بنفسك أليس كذلك ؟

• مازن– حسنًا

• نزار– أريد منكم جميعًا أن تأخذوا حذركم .

يلتفت إلى "بهاء" ويقول:

• أرجوك اعتني بهما من أجلي

• بهاء– لا تقلق سنكون بخير.. اعتني أنت بنفسك يا أخي ولا تجهد نفسك كثيرًا بالعمل.

والآن اعذروني فلدي عمل عليّ إنجازه.

كان "بهاء" قد تلقى اتصالاً هاتفيًا من صديقه المستشار "هاني" يطلب منه أن يزوره في مكتبه اليوم قبل توجهه لعمله ، أخبره بأن هناك تفاصيل جديدة تم الكشف عنها في القضية وأنه كان محقًا حين أخبره بأن للجثث الثلاثة علاقة بالقضية الأصلية ، حاول "بهاء" أن يعرف المزيد من التفاصيل من خلال الهاتف ؛ لكن صديقه وصفه بعديم الصبر وأكد له أن هذا الحديث لا يصح عبر الهاتف، لذا وجد نفسه أمام مكتب صديقه باكرًا مدفوعًا بدافع الفضول.

حين وصل إلى هناك كان "هاني" في انتظاره خارج ساريا النيابة ولم يدعوه إلى مكتبه بل طلب منه مرافقته في سيارته إلى مكان قريب، شعر "بهاء" بالحنق تجاه ذلك الغموض الذي اكتنف صديقه.

وصلا إلى ساحة مليئة بالسيارات تابعة لإدارة مرور القاهرة، وبعد أن تبادل صديقه الحديث مع أحد ضباط الشرطة بالإدارة اصطحبهما الضابط إلى الداخل، أخذ الثلاثة يسيرون عبر عشرات السيارات المتنوعة الطرازات والأشكال ، يبدو أن بعضها تعرض لحادث تصادم والبعض الآخر غلفه الغبار.

توقف الضابط أمام سيارة رمادية من طراز "بي إم دابليو" وأشار إليها قائلًا:

• هذه هي السيارة التي وصلتنا أمس.

شكره "هاني" فانصرف الضابط ، وسأله "بهاء" قائلًا:

• ما الذي يجري هنا ؟

• هاني– أليست تلك سيارة " مارجريت" التيُ سرقت ليلة الاعتداء عليها ؟

• بهاء– أعتقد ذلك فهي تشبهها كثيرًا

• هاني– بل إنها هي.. عثرنا أيضًا على بعض أغراضها بداخل السيارة

• بهاء– هذه أخبار جيدة ، من المؤكد أنها ستسعد بعثوركم على سيارتها المسروقة

• هاني – مهلًا . أنت لا تعرف من سرقوا سيارتها .. كنا نتحرى عن أصحاب الجثث الثلاث واكتشفنا أنهم تنظيم عصابي لسرقة السيارات .. كانت السيارة بحوذتهم.

• –بهاء– ماذا ؟ .. هل تقصد أنهم أنفسهم من قاموا باغتصابها ؟!

• هاني– نعم، لكن شيء كهذا يمكن للطب الشرعي وحده أن يجزم به.

• بهاء- وأنت لا زلت تعتقد أن " مارجريت" من قتلتهم ؟

• هاني- نعم لا شك في أن لها علاقة بمقتلهم، وإلاّ كيف تفسر أن يكون القتلى أنفسهم من اعتدوا عليها وسرقوا سيارتها ؟ وهل هي مصادفة أن نجد جثامينهم بالقرب من موقع الاعتداء على " مارجريت" ؟. من المرجح أن جريمة انتقامية

• بهاء- هذا جنون.. كيف لفتاة أن تقتل ثلاثة شباب دون سلاح للجريمة ؟ ألم يكن أولى بها تدافع عن نفسها حين قاموا باغتصابها؟

• هاني- لا أعرف .. لكن تبدو الجرائم الثلاثة متشابهة.

• بهاء- وماذا عن آثار التعذيب الموجودة على الجثث الثلاث ؟.. هذه الجريمة تختلف عن سابقتيها.

• هاني- لا أدري كيف تحول موقفك بهذا الشكل ؟.. لماذا صرت مدافعًا عن الفتاة ؟.. أيعقل أنك واقعٌ في حبها ؟!

كلمات "هاني" جعلت "بهاء" يغرق في عرق الارتباك الذي لا يدري مصدره .. ينبغي عليه ألاّ يرتبك فهو لم يفعل شيء خاطئ يستحق ذلك، فهو لا يكن لها مشاعر حتى تسبب له كلمات صديقه ذلك التأثير.. إلاّ إذا كان الصديق محقًا .. لا .. لا يعقل أن يكون محقًا .. هو فقط يشعر تجاهها بالشفقة والفضول الشديد تجاهها ليس إلاّ .

فهو يرغب في فك شفرات ذلك الغموض الذي يكسوها ولاسيما بعد ما حدث بالأمس.

أصبح أكيدًا من هذه الفتاة ليست عادية ولكنه يشعر بالرثاء لحالها ، لا شـــك في أنها وحيدة للغاية وأن حياتها مع زوج عمتها بعد رحيل ذويها لم تكن حياة سعيدة.

هو رغم فقره في الطفولة ويتمه عاش حياة هادئة مســـتقرة برفقة والدته وشقيقه الأكبر وكانا إلى جانبه كلما احتاج للعون.

ولكن حقًا ما الذي جعله يدافع عنها الآن ؟

كان مصـــرًا على قتلها لعمه لكنه ليس متأكدًا من ذلك الآن وهو يراها أضـــعف بكثير من أن تقتل ثلاثة أشـــخاص .. لعلها اســـتعانة بقاتل مأجور لكن من المستبعد قيامها بالأمر مهما كانت قدراتها.

وبالتفكير فيما حدث ليلة أمس التي بدت كالحلم بالنســـبة إليه رأى أن الأمر قد يفيدهما في تحقيقات القضية فقص على صديقه ذلك الخطب الجلل الذي شغل باله محاولاً أن يزيح عن أكتافه ذلك العبء الثقيل.

بدا "هاني" مهتمًا بأدق التفاصـــيل وحين انتهى "بهاء" من ســـردها صمتا قليلاً ثم قال له:

• سبق أن قلت لك أن هذه القضية برمتها غريبة ولا أستبعد وجود شيء خارق للطبيعة فيها كالسحر الأسود مثلاً.

أريدك أن تعلم بأنني استعنت بخبير أجنبي في اللغات القديمة ، تواصلت معه بصعوبة ، وأكد لي أن تلك الرموز على الجثث الخمس مكتوبة باللغة "الرونية"* وهي لغة قديمة اندثرت ولم يعد يستخدمها أحد.

***

• اللغة الرونية هي لغة ظهرت في القرن الخامس الميلادي بحسب التقديرات وكانت تستخدم في كتابة التعاويذ السحرية في الدول الجيرمانية حتى العصور الوسطى لاعتقادهم أن لتلك الحروف قوة سحرية.

• تعويذة الحماية هي نوع من الطقوس السحرية التي استخدمتها بعض الشعوب قديمًا للحماية من السحر والحسد ومن بينهم قدماء المصريين وبعض الدول الأوروبية ، وتختلف تلك التعاويذ من ثقافة لأخرى ومن ساحر لآخر.

والتعويذة هي مجموعة من الكلمات المحكيّة وغير المحكيّة، تستخدم لاستدعاء قوى خارقة أو تأثير سحريّ.

• الدول الجيرمانية: هي المناطق من أوروبا التي يتحدث فيها باللغات الجرمانية أو التي تكون فيها اللغات الجرمانية الأكثر شيوعا، تشمل هذه المناطق الأجزاء الشمالية الشرقية والشمالية من القارة كما وتشمل بعض أجزاء أوروبا الوسطى.

***

• بهاء- ماذا كانت تعني تلك الكلمات ؟

• هاني- "العدالة تتحقق".. "انتقام الأرواح الغاضبة"

• بهاء- سحقًا.. إنه الهراء نفسه حول الأرواح الغاضبة الذي تحدث عنه حارس المقبرة العجوز قبل مقتله.. لا شك في أنه يعني شيء ولكن ما هو ؟!.. ما كل تلك الألغاز ؟

• هاني- مهلاً هل تذكر تلك الورقة التي أعطيتها لي بعد أن دونت عليها بعض الرمز التي وجدتها في غرفة " مارجريت" ؟

• بهاء- نعم.. ماذا بها؟

• هاني- إنها اللغة نفسها وما أحضرته لي عبارة عن تعويذة حماية * كان يستخدمها بعض النخبة من السكان القدامى للدول الجيرمانية .. قل لي ما الذي تفعله فتاة مثلها بتعاويذ سحرية ؟.. أعرف أنها

ليست تعويذة شريرة كما قال الخبير وأن وجودها بحوذتها ليست دليلًا على استخدامها لها .. لكن ألا ترى الأمر مريع للغاية ؟!

• بهاء- نعم أنت محقٌ في ذلك .. هل تعتقد أنها استخدمت سحرًا أسودًا لقتل الضحايا؟

• هاني- نعم ، إن كنت أشك في أن للسحر مثل هذه القوة والبشاعة، على أي حال هناك خطب أخر وهو أمر الرموز المحفورة على الجثث الخمس ؛ حيث اكتشفنا أنها لم تصنع بواسطة أداة ساخنة، فقمت بالاستعانة بأستاذة جامعية لها أبحاثها في مجال الطاقة وأكدت لي أنها مصنوعة بواسطة شخص يمتلك طاقة هائلة ولديه على الأقل واحدة من القدرات الفائقة للحس أو أنها من صنع كيانات روحية كالأطياف أو الجن، لكنها ترجح الاحتمال الأول.

• بهاء- ومارجريت بحسب الرسائل من أصحاب القدرات الخارقة، لكن إذا صحت استنتاجاتنا كيف عجزت عن حماية نفسها عند الاعتداء عليها ؟.

-هاني- تلك العالمة أخبرتني أن القدرات أحيانًا تخون أصحابها فهي ليست بالأمر الدائم بل هي كالطفرات التي تأتي وتذهب وتتغير مستويات قوتها، فمثلاً المستبصرين أمثالها قد يرون أشياءًا من المستقبل أو الماضي، لكن أحيانًا لا تكون رؤاهم حقيقية ومع ذلك

يبقون من أصحاب الحس الفائق ، فهناك عوامل قد تقوم بالتشويش على قدراتهم ولكنها لا تلغيها.

-بهاء- ما الذي تنوي فعله إذًا ؟

-هاني- أنا بحاجة لدليل آخر وبعدها سأصدر أوامري بالقبض عليها ، ولكن أخبرني هل غادرت المتهمة المنزل بمفردها بعد مغادرتها للمشفى ؟

-بهاء- نعم، مرة واحدة .. كان ذلك مساء أمس الأول، ليلتها عادت إلى المنزل ثملة في وقت متأخر.

-هاني- هذا يعني وجودها خارج القصر في وقت الجريمة.

-بهاء- مهلًا،، فالجريمة الأولى استطاعت أن تثبت فيها حجة غيابها عن القاهرة تماماً، أما الثانية فقد كانت حينها محمومة على فراشها .

-هاني- لعلها تمتلك شريكًا يساعدها في جرائمها ولعله من أصحاب القوى.

طوال يومه ظل "بهاء" مشوشًا تتنازعه أفكار متلاطمة .. عقله لا ينفك يفكر في كافة الاحتمالات ، جزء منه لا يصدق استنتاجات وكيل النيابة "هاني" ، جزء آخر عاجز عن تصديق أن الفتاة التي انهارت

بين ذراعيه بالأمس وهي ترتجف وتذرف الدموع الحارة من الممكن أن تكون قاتلة .

تسائل عن سبب قيامها المحتمل بقتل حارس المقبرة العجوز، ربما لديها دوافع لقتل عمه وهي تمتلك أسباب تدفع بأكثر النساء رقة لقتل من هتكوا عرضها وسرقوا أشياءها وألقوا بها في العراء لتلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكن ماذا بينها وبين العجوز لتقتله ؟!.. هل خشيت أن يبوح بسرها ؟ .. على ما يبدو أنه كان يضمر في صدره شيء عن القاتل ويخشى البوح به لكي لا يفتك به.

كانت جميع استنتاجاته في ذلك الوقت تؤدي إلى نتيجة واحدة مفادها أن "مارجريت" هي القاتلة ، هو لا يدري كيف ارتكبت جرائمها ولكن بات شبه متأكد من قيامها بها .. إذا لم تكن هي فمن عساه يكون إذاً ؟

حين وصل إلى القصر في المساء كان أخاه قد حزم أمتعته وجهّز حقيبة سفره استعدادًا للرحيل ليكون في المطار قبل موعد إقلاع الطائرة بوقت كافي.

اعتذر "بهاء" عن عدم توصيله إلى المطار، متعللًا بشعوره بالإرهاق وانشغاله ببعض الأعمال الهامة وطلب من السائق القيام بذلك عوضًا عنه.

أما "مازن" فلم يدع الطبيب يذهب إلى المطار دون أن يرافقه حتى اللحظة الأخيرة قبل إقلاع الطائرة.

وبعد منتصف الليل بقليل كان "تزار" وإبنه المتبنى قد غادرا القصر في إحدى سيارات العم القتيل، يقوده أحد سائقيه.

استغل "بهاء" فرصة ذهابهم ليخلو بـــ"مارجريت" ويسألها عن أمور أصـــابته بالحيرة، لحق بها قبل أن تعود إلى غرفتها، أمســـك بذراعها طالبًا منها أن تنتظر قليلاً.

بحسم قال لها : " أخبريني ما الذي تخفينه ؟"

ولدهشـــته صـــمتت قليلًا قبل أن تفاجئه برد لم يخطر له على بال.. " بل ما الذي تخطط لـه أنت وصـــديقك ؟.. هو يظنني القاتلة وينوي اعتقالي، أليس كذلك ؟.. هل تظن ذلك أنت أيضًا ؟"

التزم "بهاء" الصـمت للحظات قبل أن يسـتجمع شـتات أفكاره ويقول لها:

– قدرتك على الاستبصار مذهلة، هل تستطيعين قراءة الأفكار أيضًا ؟

–مارجريت– هذا أمر لا يخصك، ومع ذلك اطمئن فلو كنت قادرة على ذلك لما وجهت لك هذا السؤال.

-بهاء- اســمعي.. أنا لا أكرهك ولا أحاول إلصــاق التهم بك ، لكني رجل عدالة قبل كل شـــيء وما يهمني هو إظهار الحقيقة وتحقيق العدالة.

- مارجريت ســـاخرة- عن أي عدالة تتحدث ؟!.. أين كانت عدالتكم تلك حين قتل عمك عمتي بدم بارد ؟!.. ســـحقًا لكم ولعدالتكم التي اعتبرت موتها انتحارًا !.

-بهاء- ما الذي تقولينه ؟ هل حقًا عمي قاتل ؟!.. كيف عرفتِ ذلك؟

-مارجريت - كيف عرفت ؟!.. إنها حقيقة حولت خمسة عشر عامًا من حياتي إلى جحيم لا يطاق وأنا أجد نفسي مضطرة إلى العيش مع رجل رأيته بعيناي يطلق النار على عمتي .

-بها- ولماذا التزمتِ الصمت طيلة هذه المدة ؟!

-مارجريت- من كان سيصدق طفلة في السادسة من عمرها ؟.. كان سيقتلني قبل أن أنطق بكلمة مما جرى.

-بهاء- وعند مقتله لماذا لم تخبري الشـرطة بالحقيقة ؟ .. ولماذا لم تطلعينا على الأمر.

-مارجريت- ما فعلته كان لمصـــلحتكما، لن تريدا أن تعلما حقيقة عمكما الوحيد ومن أين أتى بأمواله ، فقد يكلفك فضـــولك بأن تحجز

الدولة على أمواله وتصـــادرها ونجد أنفســـنا جميعًا وقد ألقوا بنا إلى الشـــارع.. لن أســـمح بحدوث ذلك، ولن أضـــحي بميراث أبي وعمتي الذي سرقه مني عمك.

صمت "بهاء" للحظات وهو يضغط على رأسه بعد أن داهمه الصداع بفعل إعصار الأفكار الذي يكاد ينسف دماغه، كان من الصعب عليه تصديق ما تقوله "مارجريت" عن عمه ، ولكن بالتفكير في الأمر يجده ممكن الحدوث، ســألها عن الســبب الذي جعل الجميع يخفون حقيقة مقتل العمة، فأجابت بأنه المال الذي جعله يشتري ذمم رجال الشرطة الذين حققوا في الجريمة، كما أن رجاله يفعلون له أي شـــي يريده ويقتلون من يقرر أن يموت.

كانت نبرة صـوتها واثقة لدرجة جعلته على وشـك تصـديق كل حرف مما تقول، لكنه أراد أن يقطع الشك باليقين فقال لها:

-ماذا إذا قلت لك أنني لا أصدق حرفًا مما تقولين ؟ .. هل لديك دليل على صدق حديثك ؟

-مارجريت- جزء منك يصـــدّق ما أقوله وجزء أخر يحاول الإنكار، وهذا واضح لكل ذي بصيرة.. اسمعني جيدًا ، إن كنت تريد دليلًا على قتله لعمتي فأنت بذلك تحلم، كيف تريد أن تحقق في جريمة وقعت منذ قرابة خمسة عشر عامًا بعد أن ماتت الضجية ومات القاتل وأنا

الشـــاهدة الوحيدة عليها، ربما يمكنك البحث في ســـجلات الشـــرطة واستجواب من حققوا معه ، لكن صدقني لن تجد شيئًا ، فهكذا رجال لا يتركون ورائهم دليل واحد يدينهم ويثبت جرائمهم.

-بهاء- لقد جعلتيني أصـــاب بالحيرة، فهل أفهم من كلامك أن عمتك ليست الضحية الوحيدة ؟

-مارجريت- أجل وهذا أمرُ يمكنني إثباته لك، اســتطيع أن أدلك على مكان بعض الجثث أيضًـا، قد أقف معك في الجانب نفســه وأســاعدك على الوصـول إلى أولئك المجرمين الذين كانوا يعملون معه بشـرط أن تحميني.

-بهاء- بالطبع، ولكن إن كنتي القاتلة فلا أســـتطيع مســـاعدتك والإطاحة بالقانون، فأنتي تريدين مني التستر على سلسلة من جرائم القتل الوحشية.

-مارجريت- أنتي بذلك نصـــبت لي محكمة وقضـــيت بأنني مذنبة، ونحن لسنا بقاعة المحكمة، أصغي لي جيدًا.. إذا لم تتعاونا معي أنت وصـديقك فأعدك بأنكما لن تصـلا إلى شـيء أبدًا وسـتدوران في حلقة أبدية مفرغة.

-بهاء- ما الذي يجعلك واثقة إلى هذا الحد ؟

-مارجريت- فلنقل إنني واثقة من حصولي على البراءة وأن لدي من الأدلة ما سيسقط عني تهمكما، وعلى الأرجح لن تفرطا في هكذا عرض يجعلكما توقعان بعشرات من القتلة وتجار الموت في هذا البلد، خاصة أن من بينهم شخصيات سياسية ورجال أعمال بارزين.

إنها صفقة العمر التي ستجعلك تغير واقع بلد بأكمله، وتجعل منك بطلًا يتصدّر الصحف وشاشات التلفاز.

أخذ "بهاء" يفكر مليًا في حديثها، هو يراها محقة في كلامها وأن عرضها مغري للغاية، خاصة أنه وصديقه يجدان صعوبة بالغة في إحراز تقدم بالقضية وأنهما عاجزان عن إيجاد دليل قاطع يدينها ، مع ذلك فإن أصابع الإتهام تشير إليها بقوة ، ولكن ماذا إذا أُلقي القبض عليها مجددًا واستطاعت "مارجريت" أن تجد حجة غياب كافية عن مسرح الجريمة كما فعلت يوم مقتل عمه ؟، بالطبع سيضطر "هاني" إطلاق سراحها مجددًا وسيقف مكتوف الأيدي أمامها، كما أنه إذا طلبت منهم الشهادة حول مكان وجودها أثناء حدوث الجريمة الثانية فبالطبع سيشهد هو وأخاه والفتى "مازن" بأنها كانت نائمة في غرفتها ، إذًا الجريمة الثالثة وحدها قد لا تستطيع أن تثبت براءتها منها إن لم تجد شهود على ذلك.

تساءل ما الذي جعلها تعرض عليه عرضًا كهذا ؟.. ولماذا تطالبه بحمايتها ؟.. هل تجد نفسها محاصرة تمامًا ؟.. هل حقًا حياتها

مهددة ؟.. أم أنها تبحث عن منفذ جديد للهرب من التهم ؟، بعفوية صادقة واجهها بتساؤلاته فأجابته قائلة:

– لنقل بأن حياتي مهددة وأنني أشـــفق عليك من بحثك العبثي عن عدالتك المنشـودة وأود تجربة عدالة جديدة مختلفة، فكّر جيدًا قبل أن تفعل أي شيء وتذكر أنني حذرتك من الدائرة المفرغة.

تساءل "بهاء" لماذا تجعله هذه الفتاة دومًا محاصرًا؟ ، لماذا يقع دائمًا في الفخ الذي نصـــبه لها ؟!.. ألم يكن من الطبيعي أن يكون هو المحقق وهي المتهمة ؟.. فلماذا يشـــعر إذاً أنه ماثل أمام محكمة "مارجريت" ؟!.

إنها امرأة لا يستهان بها رغم حداثة سنها، فهي لم تبلغ بعد عامها الحادي والعشرين.

ورغم إغراء عرضها لا يسعه القبول به ليس بسبب مبادئه فحسب فهي أمر قابل للتفاوض بالنسبة إليه إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك، لكن أيضًا بسبب كونه ليس مسئولًا عن ملف القضية ، فصديقه "هاني" وحده يملك ذلك الحق.

وليخرج من مصـــيدة "مارجريت" ذكرها بذلك ليفوت عليها فرصـــة مساومتها له، قال لها :

– لكني لست المسئول عن القضية ولا أستطيع فعل شيء بشأنها.

–مارجريت ببرود ظاهر– للأسف كان حديثنا هذا بلا جدوى .

***

في صباح اليوم التالي وصلت إلى القصر مذكرة استدعاء لـ"مارجريت" من النيابة العامة، للتحقيق معها بشأن القتلى الثلاث الذين اعتدوا عليها، أراد "بهاء" أن يرافقها للنيابة، لكنها رفضت ذلك بحسم، همست له قائلة:

– كنت أحسبك أذكى من ذلك.

وفي تلك الأثناء وقف "مازن" مشدوهًا لا يكاد يفقه شيئًا مما يدور حوله، قال لـ"بهاء" بلهجة غاضبة:

– افعل شيئًا يا عمي.."مارجريت" ليست مجرمة، لماذا يعتقلونها ؟

أجابه "بهاء" بهدوء شديد:

– اطمئن فهذا فقط استدعاء للنيابة من أجل التحقيق معها وسؤالها عن بعض الأمور وليس اعتقالًا كما تظن. وعلى أي حال سألحق بها لأعرف كيف تجري الأمور ، فقط فلتبقى أنت هنا في انتظارنا.

قضت "مارجريت" أكثر من ساعة في مكتب وكيل النيابة، المستشار هاني السيد، أنهكتها خلالها أسئلته التي تحاول الإيقاع بها وإثبات التهمة عليها، لكنها لم تفقد رباطة جأشها وتماسكها وثقتها البالغة بنفسها.

سألها "هاني" عن مكان تواجدها في وقت حدوث الجريمة، فأجابته بأنها كانت في منزل أحد الأصدقاء؛ حيث أقاموا حفلًا صغيرًا، فسأل عن مكان المنزل وصاحبه والحضور في الحفل المزعوم ، والمدة التي قضتها هناك.

في البداية ترددت "مارجريت" في إخباره، لكنها في النهاية لم تجد بدًا من إخباره بوجودها بالعزبة المملوكة لرفيقها "جاسر" فهي تعلم بأنه لن يكون سعيدًا بإقحام اسمه في تحقيقات النيابة، الأمر الذي سيؤدي لإقحام اسم والده العضو البارز بالحزب الحاكم ووالدته الدبلوماسية الأمريكية ، ولكن لا حل أمامها سوى الاعتراف بوجودها هناك طيلة هذه المدة، دون ذكر تفاصيل ما وقع في ذلك اليوم.

سماع "هاني" لاسم "جاسر" ومعرفته بمن يكونا والداه جعله يشعر بالقلق من التورط في المشكلات مع أولئك الأشخاص ذوي النفوذ المخيف، لكنه بات متأكد من صدق وجود الفتاة هناك ، فهذا الشخص المدعو "جاسر" هو من عثر عليها بعد تعرضها للحادث وقام بإحضارها إلى المشفى كما ذُكر في محضر الشرطة، وهذا يثبت وجود

معرفة وثيقة بينهما، وإلاّ ما كان "جاسر " قد كلف نفسه عنا البحث عنها، الاتصال بعائلتها لإخبارهم بمكانها.

كما أنه أكيد من أنها يستحيل أن تكون من السذاجة بمكان لتعبث مع أشخاص مثل عائلة "جاسر" بإدعاء أنها كانت في منزل ابنهم، لكنه على أي حال سيرسل بعض رجال الشرطة لسؤال "جاسر" والتأكد من صدق روايتها بشكل ودي دون أن يستدعيه إلى النيابة، فهو يريد الابتعاد عن المتاعب.

سألها عن تعويذة الحماية والرموز التي عثر عليها "بهاء" في غرفتها، فأجابته أنها تدرس اللغات القديمة المندثرة من خلال دورة سجلت خلالها عبر الإنترنت وتستطيع إثبات ذلك، قالت له بثقة:

– لا أعتقد أن هناك قانون يمنع دراسة اللغات القديمة، ما يقولونه عن علاقة هذه اللغة بالسحر ما هو إلاّ خرافات، ما عثر عليه صديقك في غرفتي التي فتشها بدون إذن من النيابة هو نص أعمل على ترجمته.

في النهاية قرر أن يطلق سراحها بضمان محل إقامتها ، على أن يتم منعها من مغادرة البلاد لحين ثبوت المزيد من الأدلة أو غلق ملف القضية وانتهاء التحقيقات.

حين خرجت "مارجريت" من مكتب وكيل النيابة تنفست الصعداء وأشعلت سيجارة ووقفت بالخارج لتدخنها في انتظار إحضار السائق لسيارتها كما طلبت منه.

اقترب منها "بهاء" محاولًا التحدث إليها ، لكنها أسرعت الخطى مبتعدة عنه وإمارات الغضب بادية على وجهها.

قال لها بصدق بالغ:

–صدقيني لم أكن أعرف بأنه سيستدعيكِ ، كنت سأطلعه على عرضك في الصباح.. تمهلي قليلًا.. على الأقل أخبريني بما دار.

بدت "مارجريت" في ذلك الوقت صلبة كالجلمود لا تلقي بالًا لأي من حديثه، فقط مضت في طريقها وكأنه لا وجود له.

ركبت سيارتها وأمرت السائق الهندي بأن يسرع ويعيدها إلى البيت، كانت جائعة ومنهكة ومستاءة إلى أقصى حد.

أرجعت رأسها إلى الوراء وأطبقت بإبهامها وسبابتها على مقدمة رأسها محاولة كبح الصداع الذي تفشى كالوباء في دماغها حتى كاد يشطره إلى نصفين.

لم تنطق بحرف آخر طيلة طريق العودة، حتى عندما تجرأ السائق على سؤالها إن كانت بخير، وعما جرى لها في التحقيق، اكتفت بزجره

بنظره قاســـية ، ثم عادت من جديد لتطبق أجفانها وتصـــارع أفكارها وصداعها اللعين.

لم ينتشلها من أفكارها السوداوية سوى صوت السائق الذي فتح لها باب السيارة الخلفي ، قائلًا :

-لقد وصلنا سيدتي.

فور أن فتحت بوابة القصـــر خادمة فلبينية حتى ترائي لها "مازن" الذي كان ينتظر وصـــولها على أحر من الجمر، حين رآها هرع إليها وعانقها، وهي مندهشة ومأخوذة لذلك التغيير المفاجئ الذي طرأ على شخصية صديقها الخجول، لكنها سعدت لاستعادتها لصديق طفولتها وتأكدت من أن شعوره نحوها لم تغيره السنون.

لقد كان خائفًا عليها لدرجة لا تحتمل ، لكن بعد لحظات اســـتوعب حقيقة الموقف، لقد عانق "مارجريت" للتو.

صُبغت بشرته الداكنة بحمرة شديدة، قبل أن يعتذر لها قائلًا:

- أنا آسف.. لقد كنت خائفًا عليكِ.

-مارجريت بابتسامة صافية : لا بأس أعرف ذلك.

وما إن مضت سحابة الإحراج لحال سبيلها حتى أخذ "مازن" يمطرها بوابل من الأسئلة.. ماذا حدث ؟ ولماذا استدعتك النيابة ؟.. ما موقفك القانوني ؟.. هل فعل "بهاء" شيئًا لإخراجك من تلك الورطة ؟.. هل هناك تهمة موجهة إليك ؟ .. هل ستستعينين بمحام ؟.. عشرات الأسئلة طرحها عليها لكنها اكتفت بقولها:

– لا تقلق . لم يجدوا شيئًا ليدينوني به ، ما من دليل على اتهاماتهم ؛ لذا اطمئن، والآن دعني أخلد إلى النوم فأنا مجهدة للغاية ، هل أعد الطاهي الغداء ؟

–مازن– نعم ، لم أتناوله، فقد كنت أنتظرك ، لكن لماذا لم يعد "بهاء" برفقتك ؟

–مارجريت– إنها قصة طويلة يا عزيزي .. يمكنك القول بأننا لسنا على وفاق هذه الأيام، الآن دعنا نتناول غداءنا فأنا أتضور جوعًا.

كان "بهاء" يشعر بالحنق تجاه صديقه الذي تصرف دون علمه ووضعه في موقف محرج مع "مارجريت"، فهو لم يخبره شيئًا عن أمر الاستعداء حين كان برفقته بالأمس.

لقد جعله ذلك يبدو كالأحمق أمامها، سيجعلها ذلك تفقد الثقة به ولن تصارحه أبدًا بما كانت تنوي مصارحته به ، كما أنه أصبح يشك في أنها بريئة كما تدعي وإلاّ فكيف تستدعيها النيابة للمرة الثانية ولا

يسعها سوى إخلاء سبيلها، أصبح يخشى أن يكونا قد اتهماها ظلمًا ، لذا واجه "هاني" بما يجيش بصدره ويضيق به ، قال لصديقه:

– إن كنت ترغب في أن أتوقف عن مساعدتك في حل تلك القضية فأنا مستعد لذلك، أما إذا كنت متمسكًا بمساعدتي فعليك مصارحتي بكل خطوة تنوي اتخاذها ، كان بقدورنا التناقش بخصوص عرض الفتاة أولاً.

–هاني– من قال لك إنني أخفي عنك أمور أو أثق بك ، إنه خطأك أنت لأنك انتظرت حتى الصباح ولم تخبرني بحديثكما بالأمس، لكن دعنا من الجدال فهناك أمر أهم .

يخُفض صوته ويقول هامسًا في أذن صديقه قائلًا:

– أخشى أن كلامها صحيح فهناك أشخاص ذوي نفوذ كبير لهم علاقة بالقضية التي انتابني اليأس بسببها، فكلما وصلت إلى حل لها وجدته سرابًا

–بهاء– هل لديك أسماء محددة ؟

–هاني– نعم هناك رجل أعمال شاب ثري للغاية ذا نفوذ مخيف ووالده عضو بالحزب الحاكم.. أرى أن نتحدث في ذلك لاحقًا، أخشى أن يتلصص علينا أحد.. فقط احترس من تلك الفتاة فهي صديقته ولا

أدري ما الذي قد تطلب منه فعله بك إن أغضبتها ، وأطلب منك الانتباه على سلامتها فهم قد لا يترددون في التخلص منها إن شعروا بأنها تشكل خطر عليهم، أنا أعرف كيف يكون أمثالهم.

-بهاء- إذًا هل ستنسحب وتترك القضية ؟

-هاني- بالطبع لا ، لكن سأحاول أن ألزم الحيطة، وحفاظًا على سلامتك أرجو أن تدع الأمر لي ، فلست أرغب في توريطك بالمتاعب.

***

الفصل الحادي عشر

"الشك"

كانت أفكاره تتصارع كثيران هائجة منذ صباح ذلك اليوم المضطرب، حتى انتهاءه من عمله بالمساء، قيادته لسيارته في طريق العودة إلى المنزل.

بدت هذه الليلة بالنسبة إليه هادئة وكئيبة على عكس الصباح المتخم بالأحداث المتلاحقة، جعلته أفكاره المشوشة لا يلاحظ أن سيارتان تبعتاه منذ خروجه من العمل إلاّ حينما حاصرتاه تمامًا !.

تصلب "بهاء" في مكانه وهو لا يدري ما عليه فعله، قبل أن يحرك ساكنًا كان أربعة أشخاص ضخام الجثة قد هاجموا سيارته وحطموا زجاجها الأمامي تمامًا.

الزجاج يتناثر و"بهاء" يحاول حماية وجهه من الحطام المتهشم الذي وصل بالفعل إلى ذراعيه وجرحهما.

يدنو أحدهم من باب السيارة الملاصق للشاب الذي أخذ يتصبب عرقًا بغزارة وهو يحاول الاتصال بالشرطة لنجدته، يمسك بمقبض الباب محاولًا فتحه بالقوة، حين ييأس من ذلك يخرج من جيبه الخلفي مسدسًا ويشهره في وجه "بهاء" الذي شعر لتوه بأن الدم قد تجمد في عروقه .

يأمره بأن يترجل ويخرج من السيارة، يضطر "بهاء" إلى الإذعان لأمر المجرم الضخم وساقاه غير قادرتان على حمله.

وقبل أن يعي شيئًا كان الرجال الأربعة قد انهالوا عليه ضربًا بوحشية غير آبهين بتساؤلاته وتأوهاته، حتى شعر بخدر شديد في جسده وثقل في رأسه، جعله يحس بأنه على وشك أن يفقد وعيه تمامًا.

يطبق أحدهم على ياقة قميصه الممزق بفعل ضرباتهم، ويرفعه إلى الأعلى قائلًا:

– هذا جزاء من يعبث مع الكبار.. تجرأ وكرر ما فعلته ولن تطلع عليك شمس مجددًا.

يلقون به على قارعة الطريق ويذرونه غارقًا في دماءه وأوجاعه وحطام سيارته وحيدًا في ذلك الشارع الهادئ ، في هذا المساء الدامي الذي تحول بطريقة دراماتيكية بشكل لم يتوقعه.

ينتظر وينتظر أن يأتي شخص لنجدته، لكن ما من أحد، في النهاية قرر أن يتحامل على نفسه ويصعد إلى سيارته فهذا أفضل من أن يبقى ملقًا على الأرض بينما جروحه تنزف والبرودة تزحف إلى جسده.

يحاول إبعاد قطع الزجاج عن المقعد، يدير مفتاح السيارة ويجاهد كي لا يفقد وعيه أثناء القيادة.

حين وصل إلى بوابة القصر تنفس الصعداء، فور أن فتحت الخادمة له الباب خارت قواه وسقط أرضًا.

تصرخ الخادمة الفلبينية بكلمات إنجليزية لاهثة ، منادية على سيدتها "مارجريت".

فور أن وقعت عيناها عليه تشهق شهقة حادة وتأمر خادمتها بمساعدتها على حمله ووضعه على الأريكة القريبة من الباب.

تسرع "مارجريت" بصعود الدرج وهي تلهث متسائلة وأفكارها تتلاحق كوميض البرق.. ترى ما الذي جرى له ؟.. من فعل به هذا ؟.. هل ذلك حادث مروري أم أن شخصًا استهدفه ؟.. ولكن من يكون هذا الشخص ؟.. هل يعقل أن يكون "جاسر" ؟.. لم يسبق أن تحادثا بهذا الشأن، لكن مهلًا لقد قال لها شيء عن التصرف بنفسه مع "بهاء" حين صفعها على وجهها ، وهي تذكر جيدًا بأنها أخبرته بأن المشكلة قد تم حلها !.

تصفق بقوة على باب غرفة "مازن" وهي في طريقها لإحضار حقيبة الإسعافات الأولية؛ فيخرج من غرفته فزعًا ، تقول له وهي تُسرع الخطى:

-عمك بالأسفل.. تعرض لحادث، حاول أن تجعله يفيق، وأحضر لي بعض الماء النظيف والثلج.

لم تكد تمضي لحظات حتى كانت إلى جواره تنظف جروحه وتضمدها ، "بهاء" يطلق تأوهات مكتومة من حين لآخر فتقطب جبينها قائلة:

– اهدأ .. قريبًا سوف يزول ألمك، تحمّل قليلًا بعد.

طوال ذلك الوقت كان "مازن" يلح عليها بأن تجلب طبيبًا لفحصه فهو لا يثق بقدرة طالبة بكلية الطب عل العناية بعمه كما ينبغي.

قالت له :

–لا داعي للقلق فهو لا يحتاج إلى الذهاب إلى المشفى.. جروحه سطحية ولا يحتاج لقطب جراحية.. ما عليك سوى أن تثق بي.

بعد أن انتهت "مارجريت" من تضميد جراحه، أطبقت على ذراعه وغرست رأس الإبرة لتحقنه بدواء يمنع تلوث الجروح، تطلب منه أن يبتلع قرص عقار مسكن ، ثم نادت خادمان إفريقيان لا يفقهان شيئًا من العربية حالهم كحال خدم القصر الذين حرص "رمزي" على كونهم أجانب لكي لا يفهمون شيئًا مما يحدث ، حتى إذا فهموا فإنهم لن يستطيعوا الذهاب إلى الشرطة فهم مهاجرون غير شرعيون، طلبت منهما حمل "بهاء" إلى غرفته، وسألت "مازن" أن يساعده في تبديل ثيابه بعد أن انتهى من محادثة أباه من خلال الهاتف وإخباره بما حدث رغم نهي "مارجريت" له عن إزعاجه وجعله قلقًا دون داعي.

حين خيم السكون على القصر وآوى الجميع إلى أسرتهم ولزم الخدم المبنى المخصص لهم في الليل، تسللت "مارجريت" إلى غرفة "بهاء" ليس فقط للاطمئنان عليه بل كان الفضول يدفعها لذلك، ولم تسمح لها الحيرة بأن تدع الليل يمضي لحال سبيله قبل أن تعرف حقيقة ما جرى.

تطرق على باب غرفته برفق قبل أن تسمع صوته الواهن يطلب إلى الطارق أن يدخل، ولدهشته كان واقفة أمامه برداء نوم وردي وقد عقدت شعرها إلى الأعلى فأظهر حسن وجهها وجمال عنقها اللؤلؤي الأبيض اللون.

لم يكن يتوقع مجيئها لغرفته في ذلك الوقت المتأخر من الليل، شعر بالحرج فهذه هي المرة الأولى في حياته التي تأتي فيها فتاة إلى غرفة نومه ، تساءل حول نواياها الحقيقية ، أما هي فلم يدور بخلدها قط أي من تلك الأفكار الجامحة.

بثقة بالغة أوصدت الباب ومضت بخطوات واثقة نحو فراشه، تدنو منه وتنحني إلى الأسفل، تمد يدها وتتحسس جبينه لتتأكد من حرارته ليست مرتفعة.

أنفاسها الحارة توقظ في نفسه مشاعره الرجولية التي جمدتها قسوة الأيام وكثرة الإخفاقات؛ ففي تلك الليلة أدرك كم هي جميلة ، لقد حاول إنكار ذلك، لكنه لم يعد قادرًا على الإنكار بعد الآن.

تسحب يدها وعلى محياها ابتسامة صافية، تقول له:

– حرارتك طبيعية.. أنت بخير.

يمد يده ويضم بكفه راحة يدها، بنظرات متوسلة سألها قائلًا:

–لماذا تفعلين ذلك ؟.. لماذا تعتنين بي ؟

–مارجريت– ولماذا اعتنيتم بي حين كنت محمومة ولم تكونا تعرفاني إلاّ منذ أيام ؟.. لست سيئة إلى هذا الحد.

–بهاء– كنتي غاضبة عليّ منذ الصباح لدرجة جعلتني أشعر بأنك لن تتحدثين إليّ مجددًا، وربما ستقومين بخنقي في أقرب فرصة.

تتسع ابتسامة "مارجريت" حتى تظهر أسنانها البيضاء الناصعة، ثم تسحب يدها من بين أصابعه قائلة:

–يبدو أنك تتعافى سريعًا، وتجد في نفسك طاقة للدعابات.. دعك من المزاح وأخبرني ما الذي حدث لك حقًا ؟

أخذ "بهاء" يروي لها تفاصـــيل ما حدث في حقيقة الأمر، فهو أخبر الجميع أنـه تعرض لحادث مروري، فهو لم يشـــأ أن يصـــاب أخاه و"مـازن" بالخوف، أما "مارجريت" فلم يجد حرجًا في إخبارها فهي على ما يبدو خبيرة بهذه الأمور !.

أخذت ملامحها تتبدل إلى جديتها المعهودة، قد شـــاب جديتها الحنق الشديد،وقبل أن ينهي كلامه قال لها:

– لا أحد غيرك يعلم بـالأمر، لا أنوي إخبـار أحد، لســـت أرغب في المزيد من المتـاعب، وإذا وصـــل الأمر للشـــرطة قد تتهمك النيابة بالوقوف وراء الأمر بسبب علاقتك بذلك الوغد المدعو "جاسر".. لست أدري ما الذي يربط بشخص مثله ؟!.

– مـارجريت– إنـه وغد غبي.. كثيرًا ما يرتكب الحماقات ، لكنه يحبني وكان يحميني من بطش عمك.

–بهاء– هل أنتي واثقة من أنه من أرســل هؤلاء الرجال لضــربي؟.. ولكن لماذا ؟ ، أنا لست المسئول عن هذه القضية.

–مارجريت– اسمعني يا "بهاء" ، إن كنت تحسب أن لي يد فيما حدث لك فأقســم لك بحياتي أنك مخطئ ، لســت أعرف عن الأمر أكثر مما قصـصـت أنت عليّ، صـحيح أنني مسـتبصـرة إلاّ أن لقدرتي حدود وما

أراه ليس سوى نقطة في بحر. صدقني لم يكن بيدي فعل شيء، لكني أعدك أنني سألقن الفاعل درسًا قاسيًا.

-بهاء- إحساسي يؤكد لي أنك تصدقيني القول، لكن أرجو أن تبقي بمنأى عن ذلك، ولا تعرضي نفسك للخطر، يكفينا ما حدث حتى الآن.

على ما يبدو أن كلماته الأخيرة لم تُحدث في نفس "مارجريت" التأثير الذي ابتغاه ، ولم يجعلها تعدل عن رأيها ؛ فهي شخصية عنيدة إلى أقصى حد ، لكنها حذرة أيضًا وتعرف دومًا متى يتوجب عليها الانسحاب قبل فوات الأوان.

رأسها حلبة مصارعة تكتظ بالأفكار.. بعضها دامي.. بعضها جريح .. بعضها يحمل في جوفه شيء من الخوف .. والبعض الآخر مليء بالعنفوان والقوة كمصارع روماني.. جميع أفكارها تتقاتل و "مارجريت" وحدها من تقرر من سيفوز بالنهاية.

غادرت غرفة "بهاء" بعد أن أعطته مسكنًا للآلام، تركته لوحدته والجدران يصارع هو الآخر أفكاره ومشاعره الجديدة التي طفت على السطح مؤخرًا لتذكره بأنه شاب أعزب شارف على الثلاثين من عمره وأنه حان الوقت ليبحث لنفسه عن شريكة حياة تغمره بمشاعرها وتعوضه عن ما يواجهه يوميًا من صعوبات في العمل وما عاناه في حياته من يتم المنشأ وقسوة العيش.

صقيع بارد تسلل عبر نوافذ الردهة إلى عنق "مارجريت" وجعلها تشعر بقشـــعريرة باردة، تضـــم ذراعيها براحتي يديها وتســـرع الخطا نحو غرفتها.

تحرك مقبض الباب وتدفعه إلى الداخل فيفتح باب الغرفة، توصـــده خلفها وتضغط على زر الإضاءة الخافتة ، فتضاء الغرفة بلون أحمر قاني.

تفاجأت كثيرًا حين اصطدمت عيناها بـ"مازن" الذي جلس على الكرسي المقابل لها وقد اتكأ على مسنده وصوب مقلتيه تجاهها !.

أصـــابتها الدهشـــة، كيف دخل إلى هناك ؟ وما الذي يفعله بغرفتها وبدون إذن منها ؟!.

تذكرت أنها كانت في عجلة من أمرها حين سقط "بهاء" مغشيًا عليه، لذا غادرت الغرفة ونسيت أن توصدها خلفها.

لكن "مازن" لم يسبق له أن فعل شيئًا وقحًا إلى هذا الحد ، فمن أين استمد كل هذه الجرأة المفاجأة ؟!

بحزم قالت له :

-ما الذي تفعله في غرفتي ؟

-مازن- كنت أنتظر وصولك.

ينهض من مجلسه ويخطو بضع خطوات حتى يدنو منها.

-مارجريت- كيف سمحت لنفسك باقتحام غرفتي ؟

-مازن- كان بابها مفتوحًا .. دعكي من المراوغة وأخبريني كيف كان ليلتك في غرفة "بهاء" ؟.. يبدو أنكما تستمتعان بوقتكما كثيرًا في الآونة الأخيرة.

-مارجريت غاضبة- اخرس.. هل جننت ؟!

-مازن- إلى متى تنويان إخفاء الأمر عنا.. لقد رأيتكما معًا في الحديقة، كانُ يقبلكِ أليس كذلك ؟

-مارجريت- هذا في خيالك المريض فقط .. أنت ترى ما تريد رؤيته.

-مازن- إذاً كيف تفسرين وجودك في غرفته بهذه الثياب وفي مثل هذا الوقت من الليل ؟

-مارجريت- هل أنت عاجز عن الرؤية ؟ .. ألا ترى الحال التي هو عليها ؟.. من عساه يعتني به غيري ؟.. أتعرف أمرًا لو لم تكن صديق طفولتي الوحيد لكنت حطمت رأسك على حديثك الوقح هذا.

-مازن- أنا آســـف حقًا يا "مارجريت"، أرجوك ســـامحيني، أنا فقط خائف من فقدانك مجددًا.. "مارجريت" أنا أحبك ، لطالما أحببتك أنت.

-مارجريت- أرجوك لا تكمل حديثك يا "مازن" ، ليتك أخبرتني بذلك حين كنا صغارًا فربما كنت سأقول لك إنني أبادلك الشعور نفسه، أما الآن فليس لدي قلب لأحب أحد ولا حتى نفسي .

-مازن- هل هناك شخص يشغل قلبك ؟ هل هو ذلك الشاب الذي أتى بك إلى المشفى ؟ هل تحبينه ؟.. هل هو بسبب "بهاء" أم شخص أخر ؟

-مارجريت- أحمق، لا تصعّب عليّ الأمور كثيرًا، أنت لا تعرف شيئًا أبدًا.. أرجوك ارحل ودعني وشأني فقد مررت بيوم لا أحسد عليه، استيقظت لأجد الشرطة تصطحبني إلى النيابة واضطررت لتحمل سخافات وكيل نيابة مصمم على ملاحقتي وفي المساء أصاب عمك ما حدث .. حتى أنني اكتشفت اليوم أن بداخلي نطفة لطفل ينمو في أحشائي ولست أعرف من أباه. وليس "بهاء" لعلمك !.

وقف أمامها "مازن" فاغر الفم وهو لا يصدق ما سمعه لتوه من الفتاة التي أحبها من الماضي وحمل لها معه صورة طفولية بريئة طوال تلك السنوات.. إنها تعلن له أنها تحمل في جوفها ثمرة الخطيئة دون أن تخجل حتى !.

تراجع إلى الخلف بحركات آلية حتى يصـــل إلى باب الغرفة فيفتحه ويفر خارجًا كمن لدغته أفعى، مخلفًا وراءه "مارجريت" التي جثت على ركبتيها وأطرقت إلى الأسـفل بعد أن خالجها شـعور قوي بالندم لأنها كشـف له عن ذلك السـر الذي تعرفه أنه سـيجعله يكرهها إلى الأبد.

الشـكوك تقتلها، حين قالت له بعفوية أنها لا تعلم الأب كانت صـادقة في ذلك ؛ فاليوم فقط اكتشـــفت أنها قد تصـــبح أمًا لطفل هو على الأرجح من صلب أحد المعتدين عليها.

إنه خطأ المشفى الحكومي المتهالك الذي اضطر "جاسر" إلى إرسالها إليه فقد كان الأقرب لموقع الحادث ، وهي كانت بين الحياة والموت وحالتها لا تسمح بمزيد من الانتظار.

أطباء ذلك المشـفى الذين قاموا بإسـعافها لم يدركوا بأن عليهم حقنها بدواء يمنع حدوث الحمل فربما لم تتوافر لديهم الإمكانيات أو على الأرجح ظنوا أنها لن تنجو.

لكن الشكوك لا تزال تعصف بها فلعل ما حدث هو من آثار ليلتها مع "جاسر" .. إنه احتمال جائز على أي حال.

***

النوم هجر أجفانها والسهر كحل عينيها وصبغ وجهها بصبغة شاحبة كئيبة.. إنها عاجزة عن النوم بسلام، تحمل في صدرها أطنانًا من الهموم وجبلًا من التساؤلات.. ما الذي يتوجب عليها فعله ؟

يومان بلياليهما مرا على حديثها مع "مازن" وأصبح كلاهما يهرب بعيناه بعيدًا عن الآخر، فالحقيقة أشد مرارة من العلقم بشكل يعجزان معه عن ابتلاعها .

بدا جليًا أنهما يتجنبان أي أمر قد يدفعهما للتحدث مجددًا، وخلال هذان اليومان كانت تفحص جراح "بهاء" وتقوم بتطهيرها وتغيير ضماداتها ، وفور أن تنتهي من ذلك تسرع بمغادرة المكان متعللة بانشغالها، ثم تمضي بسيارتها بعيدًا عن القصر لتقضي طيلة يومها بالخارج إلى أن يحل المساء فتعود أدراجها إلى المنزل.

وفي الليلة الثالثة كانت "مارجريت" تتسلل إلى غرفتها حين نادها "بهاء" متسائلًا:

-هل أنتي بخير ؟.. تبدين غريبة بعض الشيء وكأنك أصبحتِ تتجنبين الجلوس معنا أو تهربين من شيء ما.. هل من مشكلة تواجهك وتحاولين إخفاءها عنا ؟

-مارجريت- شكرًا لاهتمامك.. لا شيء مهم فأنا منشغلة بالدراسة.

-بهاء- أخشـى فقط أنكي لم تصـغي لما قولته لك حول التزام الحذر والبعد عن المتاعب وأولئك الأشخاص.

-مارجريت- اطمئن.. فلا علاقة لذلك بالأمر.

رنين ينبعث من هاتف "بهاء" المحمول فتهمُ "مارجريت" بالتحرك بعيدًا عنه ، يقطب حاجبيه ويمط شـفتيه حين يرى أن رقم المتصـل غير مسـجل لديه، يضـغط على زر الإجابة على الاتصـال فيأتيه صـوتٌ ذكوري لاهث يقول:

- "بهاء" أنا زميلك "مصـطفى".. إن "هاني" ليس بخير. لقد عثرنا عليه اليوم مقتولًا في مكتبه !.

الهاتف المحمول يهوى من يديه ليرتطم بالأرض ويبقى هو فاغر الثغر للحظات ووجهه يعلوه شحوب مخيف، حدقتاه جامدتان كحجر.

تعلو ملامح وجه "مارجريت" الدهشـة بينما كانت في طريقها للعودة إلى غرفتها، لكنها توقفت عن الحراك وهرعت إليه بعد سـقوط هاتفه أرضًا.

بقلق بالغ سألته: "ماذا حدث ؟ "

لكن الصـــدمة كانت قد عقدت لســـانه وبدا لها ســـابحًا في ملكوته الخاص؛ فتدنو منه وتمسك بأسفل وجهه بقوة لتجعله في مواجهتها ، ثم تقول له:

-هل أخاك بخير ؟.. هل أصابه مكروه ؟

أخيرًا تنبه "بهاء" لحديثها واستجمع شتات أفكاره، ليقول لها بصعوبة:

-لقد قُتل "هاني"

-مارجريت- من ؟

-بهاء- صديقي "هاني" إنه وكيل النيابة الذي حقق معك

ترخي "مارجريت" جفنيها وتمســـك بناصـــية وجهها ، تتنهد تنهيدة عميقة ثم تقول له:

- أنا حقًا آسفة لموته.. لا أدري ماذا أقول ؟

-بهاء- لا تقولي شـيئًا ، عليّ أن أذهب الآن، لا شـك في أن زوجته منهارة وفي حاجة ماسة إلى العون.

-مارجريت- هل من مســـاعدة أســـتطيع تقديمها ؟.. هل يمكنني المجيء معك فأنت لا تبدو لي بخير ؟

-بهاء- لا ابتعدي أنتي عن كل ذلك وابقي بالمنزل، إذا سألك "مازن" عني أخبريه أنني ذهبت إلى عزاء.. لا تخبريه شيءٌ عن جريمة القتل فهو رأى ما يكفيه حتى الآن.

***

الفصل الثاني عشر

"النبوءة"

كانت أشعة شمس الشروق قد تسللت إلى غرفة "مارجريت" عبر زجاج النافذة لتجعلها تفيق من نومها منزعجة، يبدو أنها نسيت أن تسدل الستائر .

تتثاءب، تنظر إلى ساعة المنبه الموضوع بالقرب من فراشها.. كانت الساعة السادسة تقريبًا حين سمعت هدير محرك سيارة "بهاء"؛ فتنفض عنها غبار النعاس وهي تكافح شعورًا مقيتًا بالإعياء قد تملكها.

تتجه إلى دورة المياه الخاصة بغرفتها فتغسل وجهها بالماء الدافئ وتجففه بمنشفة نظيفة، وترتدي رداءًا للاستقبال ثم تغادر الغرفة موصدة الباب خلفها.

بدا لها "بهاء" في حال مذرية، عيناه جاحظتان تحيطهما أخاديد داكنة اللون ووجهه شاحب يبدو عليه الإجهاد.

سألته إن كان بخير؛ فأجابها بأنه سيكون على ما يرام ، تطلب منه التوجه لغرفته لتبديل ثيابه ريثما تعد فنجانين من القهوة ليقوما باحتساءهما.

في تلك الأثناء كانت تتساءل عن سبب تصرفها على ذلك النحو العطوف ، لماذا تهتم كثيرًا لشعوره ؟.. رأت أشخاصًا كثيرونُ يقتلون أمام عينيها وهذه ليست المرة الأولى التي تحدث فيها جريمة مماثلة،

لكنها تعرف جيدًا معنى أن تفقد شـخصًـا عزيزًا على قلبك وكم يكون الأمر مؤلمًا.

إنها تشـعر بأنها تتغير مؤخرًا شـيئًا فشـيئًا وأنها قريبًا سـتصـبح فردًا حقيقيًا من هذه العائلـة، كـانـت تشـــعر بـالوحدة والخوف دائمًا قبل اقتحامهم لحياتها ، في البدايـة أزعجها وجودهم بشـــدة لكنها الآن تشـعر بأنهم هدية أرسـتها لها العناية الإلهية لتنتشـلها من أشـباح الخوف والموت والوحدة.

رشـف "بهاء" بضـع رشـفات من قدح القهوة وكذلك فعلت هي، لكن أحدًا لم يأخذ بزمام الحديث، فقط خيم صمتٌ مؤلم.

أخرجت "مارجريت" قداحتها وأشعلت سيجارة، سألته إن كان يرغب في التدخين فهز رأسه بالإيجاب.

مرت دقائق ولا شيء سوى الصمت والدخان وأصوات رشفات من آن لآخر.

تدنو منه "مارجريت" وتحدق في عيناه ثم تهمس بصوت خافت:

– ألا ترغب في الحديث ؟.. قل شيئًا أرجوك. أنت تحترق كمدًا.

–بهاء– ماذا تريديني أن أقول ؟.. ما من شـــيء ليقال.. صـــديقي الشـاب الثلاثيني رجل القضـاء النزيه قُتل .. ماذا تفعل أرملته الشـابة

التي لم ينقضـــي على زواجها منـه أكثر من عامين، وقد رحل مخلفًا لها توأمين رضيعين ؟.. قولي لي ما الذي أقوله يا "مارجريت" ؟!

لم تجد كلامًا مناسبًا في ذلك الوقت لتقوله، فقط شعرت بالغثيان يدفع ما بأحشائها إلى بلعومها ؛ فركضت مسرعة إلى دورة المياه لتفرغ ما في جوفها من بقايا طعام الأمس، وصدرها يعلو ويهبط.

ينتابها شـــعور بأن الأرض خرجت عن مدارها لتتحرك بشـــكل جنوني فأطبقت على الجدار متمسكة به وهي تخشى السقوط أرضًا، تترنح إلى الوراء وتكاد تهوي إلى الأســـفل لولا "بهاء" الذي انتابه القلق فتبعها إلى هناك، كان قد أمســـك بها وســـاعدها على الجلوس على فراشها ، وأحضر لها محارم ورقية لتجفف وجهها المبتل الذي يتصبب عرقًا باردًا.

قال لها:

-ماذا أصابك ؟.. هل أنت مريضة ؟. هل أجلب لك طبيبًا ؟

-مارجريت- أنا آســـفة، كان يُفترض أن أعتني بك في هكذا ظرف ، لكن ما حدث هو العكس.

-بهاء- أُقدر لك ما فعلتيه لأجلي ، ولكن هل الأمور على ما يرام ؟

-مارجريت- لا شـــيء مهم، ســـأكون بخير، أعتقد أن إجهادي هو السـبب، سـوف أخلد إلى الراحة وأحصـل على قسـط آخر من النوم. اطمئن ، اذهب أنت واسترح فأنت لم تنم منذ الأمس.

مضـــى "بهاء" إلى غرفته بعد خرج من عندها موصـــدًا الباب خلفه ليتركها تنام، وهو متشكك في صدق حديثها فقد كاد يجزم بأنها تخفي أمرًا لا تريد أن تشغله به.

أما هي فلم تســـتطع النوم بعد أن داهمتها أعراض الحمل وذكرتها بالعبء الثقيل الذي ترغب في التخلص منه.

بتردد أمســك "مارجريت" بهاتفها المحمول واتصـلت برفيقها "جاســر" انتظرت طويلًا دون أن يصـلها رد، كانت أكيدة من أنه يغط من سبات عميق، لكنها أصرت على إيقاظه من نومه ليشاركها بعضًا من أرقها ، لم تكن قد أطلعته بعد على ســـر حملها لأنها لا تثق فيه ولا تعرف ما ســـتكون ردة فعله، لكنها لم تجد بدًا من إخباره فلعله يرغب في الاحتفاظ بذلك المخلوق الصغير الذي ينمو في أحشاءها.

بتسائل أجابها قائلًا :

-ماذا هناك ؟.. لماذا أيقظتني من النوم ؟

-مارجريت- هناك أمور هامة ينبغي أن نتحدث بها.

-جاسـر- الآن !.. عودي إلى النوم أيتها المجنونة ، سـوف نتحدث لاحقًا عندما نصحو.

-مارجريت- ينبغي أن نتقابل اليوم فالأمر لا يحتمل التأجيل.

-جاسر- لقد بدأت أقلق، ألا يمكنك إخباري الآن ؟

-مـارجريت- لا عندما نلتقي، سـأكون عندك في الثانية ظهرًا وأرجو أن تكون حينها قد استيقظت من نومك الغالي.

***

بدا نهارًا عاصـفًا منذ بدايته، فشـهر فبراير شـارف على الانتهاء وقد بدأت البرودة بالانقشـاع ، لكن رياح الخماسـين العاصـفة هبت بقوة حاملة معها الغبار والرمال الصفراء التي كست الأجواء بصفرة حزينة تذكرك بفيلم سينمائي قديم.

كانت "مـارجريت" تجلس خلف مقود سـيارتها وقد قطبت حاجبيها وأخذت تزم شفتيها وتزفر زفرات غاضبة وهي تحاول أن تمر بسيارتها وسط حشود السيارات المتكدسة في الظهيرة.

هذه المرة لن تقصد فيلا "جاسر" الواقعة على طريق الفيوم الصحراوي، لكنها سـتتجه نحو شـقة يمتلكها بحي "جاردن سـيتي" ، فهي لن تجازف بالقيادة على الطريق السريع في تلك الأجواء العاصفة.

كانت تسعل بفعل الأتربة والغبار المتطاير وربما أيضًا بفعل عادة التدخين التي اكتسبتها مؤخرًا.

تمكنت من إيجاد مكان مناسب لتترك به سيارتها، تدلف من بوابة العمارة السكنية فيسألها حارس الأمن عن الشقة التي ستقصدها فتجيبه، يفتح لها موظف باب المصعد ويضغط على زر الطابق الرابع.

كلما صعد المصعد إلى الأعلى كلما ازداد خفقان قلبها ، إنها تدرك أنهما حتمًا سيتشاجران بقوة، لا تعرف ماذا سيحدث بعد ذلك ؟، لكن هناك أمور ضرورية بحاجة إلى الحسم، عليها أن تحسمها اليوم قبل الغد.

يقول لها الموظف أنهما قد وصلا بالفعل للطابق الرابع ويفتح لها الباب لتخرج.

تتجه نحو الشقة الواقعة على يسارها وتضغط على زر الجرس.. تنتظر للحظات قبل أن يفتح الباب، تجد "جاسر" ماثلًا أمامها وراء الباب بقميص أبيض اللون معظم أزراره مفتوحة في فوضى طائشة وبنطال من الجينز الأزرق ، ويحمل في يده سيجارًا كبيرًا، حين يراها تتسع ابتسامته ويدنو منها ويعانقها قائلًا:

-لماذا تأخرتي يا حبيبتي ؟

يطبع قبلة سريعة على وجنتها ويمسك بخصرها ساحبًا إياها إلى الداخل ، يوصد الباب خلفهما.

لم يكن من الصعب أن تميز "مارجريت" رائحة الشراب المنبعثة من فمه والتي لم تلقى منها قبولًا.

سألها بينما يساعدها في خلع معطفها الثقيل عن ما إذا كانت ترغب في احتساء الشراب ؛ لكنها قالت له بتبرم:

-بالطبع لا .. ألن تكف عن احتساء الشراب في الظهيرة ؟!.. ثم ما هذا القميص الصيفي الذي ترتديه والجو بارد ؟!.. ألا تشعر بالبرد ؟.

بدا لها الأمر وكأنها تتحدث إلى نفسها فهو لم يجيبها ولم يكترث لأي من حديثها، فقط دنا منها وأمسك بخصلات من شعرها وأخذ يشم ريحها ويمررها على شفتيه عابثًا، ثم يقول لها ببرود مصطنع:

-لماذا أنت غاضبة ؟

-مارجريت- ألا يمكنك أن تكون جديًا معي لبعض الوقت ؟

يُطبق على عنقها وأسفل رأسها ليضمها إليه بقوة ويسحق شفتيها بعنف، تدفعه بعيدًا عنها وهي تلهث، تتركه غارقًا في دهشته حتى أخمص قدميه بعد أن منّى نفسه بقضاء ليلة أخرى في أحضانها.

قال لها بدهشة غاضبة:

-ماذا دهاكي ؟!.. كنت رائعة في تلك الليلة التي قضـــيناها ســـويًا، شعرت بأنك ملكي، ما الذي تغير الآن ؟!.

-مارجريت- كنت ثملة ولم أدري ما كنت أفعله.

-جاسر- لماذا جئتِ إذاً ؟!.

-مارجريت- ليس هذا ما جاء بي.. جئت لاســـتوضـــح منك بعض الأمور.

-جاسر ساخرًا- ماذا ؟.. من أجل ذلك جئتِ ؟!.

-مارجريت- توقف عن السخرية وأجبني.. هل أرسلت رجالك لضرب "بهاء" ؟

-جاسر- وماذا في الأمر ؟!.. قلت لك سأتصرف معه بنفسي.

-مارجريت- وأنا قلت لك أن المشكلة قد تم حلها، فلماذا تصر على التدخل ؟.. ولماذا حلول كل المشكلات عندك بالعنف ؟!.

-جاســـر- لماذا أنت غاضـــبة من أجله ؟.. هل تجرأتِ على خيانتي معه ؟!.. هيا اعترفي.

يمسك بذراعها ويقوم بثنيه وراء ظهرها بقسوة ويجعلها محاصرة بينه وبين الجدار البارد..

-مارجريت وهي تستشيط غضبًا- هل جننت ؟!.. ما الذي تفعله ؟.. دعني يا "جاسر" فأنت ثمل.

-جاسر ساخرًا- اعذريني فأنا ثمل، ربما عندما أفيق لن أتذمر شيئًا مما حدث تمامًا كما نسيتِ تلك الليلة التي قضيتيها في فراشي، من يدري لعلك قضيتي مثلها في فراش الوغد الذي تتشاجرين من أجله.

يواصل الضغط على جسدها ليسحقها بينه وبين الجدار الميت حتى شعرت بأنها ستختنق، قالت له كملاذ أخير:

- جاسر أيها الوغد أنا حامل.

نزلت كلماتها على رأسه كالصاعقة ففر مبتعدًا كمن رأى أفعى ، بينما جثت "مارجريت" على ركبتيها تلهث وهي خائرة القوى كان ينظر هو إلى السقف وفي رأسه عشرات الأسئلة تدور بذهنه، للحظة شعر بالخوف، فحين قام بإيلامها لم يبتغي سوى أن تقسم له بأنها لم تسلّم نفسها لرجل سواه وأن تخبره بأي مبرر لرفضها قيام رجاله بضرب "بهاء"، أما الآن فقد أخافته فكرة أن تؤكد له شكوكه وتخبره أن الطفل بداخلها هو ابن "بهاء".. ربما سيقتلها حينها ثم يذهب إلى "بهاء"

ليفجر رأســـه وينكل بجثته؛ لذا لم يجرؤ ، يبدو أنها فهمت ما يدور بذهنه فقالت:

-إنه ابنك.

سادت لحظات صمت قبل أن يقول لها:

-ماذا ؟.. كيف يمكنني التأكد من ذلك الآن ؟.

-مارجريت- جاسر أيها الغبي أقسم لك أنني لم أُسلّم جسدي لغيرك، لم أســمح لأحد آخر بلمســي وأنت تعرف من هي "مارجريت"، وماذا فعلت طيلة سنوات لأحمي شرفي من الشيطان "رمزي" .. كيف تتهمني بأشياء غبية كهذه ؟!.

-جاسر- أنا آسف . لا أستطيع احتمال أن تكوني لغيري يا عزيزتي ، ثم أنك الملامة فأنتي من بدأ الشجار لأجل هذا الغريب.

-مارجريت- هذا الغريب ينتمي للأســرة التي اعتنت بي وداوتني حين كنت في حال مذرية، إنهم أناس طيبون لا يســتحقون أن تقوم بإيذائهم.

-جاسر- لكنه وصديقه كانا يحاولان الزج بك إلى السجن، لقد كنت رحيمًا معه لأني ممتن لما فعلوه هو أســرته من أجلك ، فكوني ممتنة لأنني لم أقضي عليه.

-مارجريت- إذًا أنت قتلت وكيل النيابة "هاني" لذلك السبب ؟.

-جاسـر- ليس لذلك فحسـب فقد كان منشـغلًا مؤخرًا بالتحري عني وعن والدي وعن أعمالنا التي تتم في الخفاء، لم يكن بيدي حيلة فقد كان يخطط للزج بي إلى السجن.

-مارجريت- كان للرجل أسـرة .. كانت له زوجة شـابة وتوأمان رضـيعان .. ربما كانت هناك طرق أخرى غير قتلك له لحل المشـكلة، ألا تملك في قلبك ذرة شفقة ؟

-جاسر- وأين كانت شـفقتك تلك حين قُتل "رمزي" وحارس مقبرتهم ، وحين طلبتي مني أن أجلب لكِ المعتدين عليكِ لتقتليهم ؟!.. لم أخبركِ أن الشرطة عثرت عليهم مقتولين في اليوم نفسه لإطلاقي سراحهم.. ومهما أقسمتي لي ببراءتك من دماءهم فأنا لن أصدقك ، فقط لا أفهم لماذا ترتدين قناع الحمل البريء أمامي وتصـرين على أني وحدي من يداه ملوثتان بالدم ؟!.. أخبريني أيتها الرحيمة لماذا لم تفعلي شـيئًا لإنقاذ ضـحايا عمك من مصـير القتل أمام عينيكِ؟ ولماذا لم تحاولي يومًا أن تبلغي أحدًا عن جرائمه ما دمتِ ترفضينها ؟!.. لستِ بريئة يا "مارجريت" من الدم.

-مارجريت- كانوا جميعهم قتلة ومجرمين يسـتحقون القتل.. حارس المقبرة كاتم أسـرار "رمزي" الذي كان يدفن جثث ضـحاياه في الخفاء

دون أن يجفل ، لماذا عساي أشفق عليه ؟!.. أما ضحايا "رمزي" فلم أملك لهم ضرًا ولا نفعًا.

-جاســـر- بل خفتي يا "مارجريت" من أن ينتقم منكِ هو ورجاله إن أفشـيتِ سـرهم، وخفتي أيضًـا وارتعبتِ لفكرة أن تتم مصـادرة أمواله وتفقدين إرثك الذي ســـلبك إياه للأبد .. أنتي متورطة بالأمر حتى أخمص قدميكِ.. بســـبب معلوماتك أيتها العرافة نجح "رمزي" في تصفية الكثير من رجال الأعمال.. بسببك أنتي أوقع بهم وتضاخمت ثروته أكثر، هل حسبتي أنه أخرجك من القبو المظلم شفقة منه عليكِ ؟.. برأيك لماذا أبقى على حياتك كل تلك الســـنوات ؟ من المؤكد أنه ليس وفاءًا لذكرى عمتك ووالدك.

-مارجريت- ما فعلته لم يكن من أجل ذلك الشـــيطان بل كان من الضروري أن يتخلص أحدنا من أولئك الفاسدين الذين يزهقون أرواح الأبرياء وينهبون أموال الفقراء، لم يكن لديّ مانع من أن يصـــبح "رمزي" أداتي لتحقيق ذلك بينما يظن هو أنه يقوم بتصفية خصومه.

-جاسر- وهو لا يدري أن دوره قادم وأنك ستقضين عليه في الوقت المناسب .

-مارجريت- لا تسترسل في الاستنتاجات.. أنت تعرف أنه أراد أن يتخلص مني في أقرب فرصة، كما أنك أكثر من استفاد من كل ذلك بعد أن تخلصت من "رمزي" وكل منافسيك.

-جاسر- إذًا أنت لم تحاولي مساعدتي طيلة تلك المدة بل استخدمتني أداة لتحقيق أغراضك تمامًا مثل "رمزي" الأحمق ؟!.

-مارجريت- جاسر لا تخلط الأوراق أرجوك ، أنت تعرف أن هذا غير صحيح فلا تجرنا إلى شجار جديد، أخبرني ماذا أفعل بخصوص الطفل ؟.. فكرة إجهاضه تخيفني وكذلك فكرة الاحتفاظ به.

-جاسر- تحتفظين به ؟!. وهل تعرفين أصلًا من أباه ؟!.. اسمعيني لا أقصد الإهانة لكن ثلاثة أوغاد اغتصبوكِ الشهر الماضي ، هناك احتمال أن يكون طفلك هذا من صلب أحد هؤلاء الحثالة فهل ترغبين في الاحتفاظ بمثل هكذا تذكار ؟!.

-مارجريت- بالطبع لا ، لكني أشعر بأنه ابنك أنت.. أنا خائفة وأشعر بالوحدة والضياع.. لا أعرف ما عليّ فعله .. ربما يغير ذلك الطفل حياتي، لعلها إشارة من القدر لأنسى الماضي وأبدأ من جديد.

-جاسر- عزيزتي حتى لو كنت أبوه كما تقولين فليس من العدل أن تأتي به إلى عالم كعالمنا وأبوان مثلنا ، لن يكون طفلك أكثر منك

سعادة، ستحكمين على نفسك وعليه بالتعاسة لأنك لن تكوني له أمًا أفضل من أمك.. ليس عليكِ أن تغضبي لما قلته فهذه الحقيقة.

دنا منها "جاسر" ليضمها إلى صدره، لكنه ما إن اقترب منها حتى ذهبت في عالم آخر وأخذت الصور تتلاحق أمام عينيها.

رأت "جاسر" وأباه يتشاجران.. والده الكهل ذا الصوت الغليظ يصفعه بقوة على وجهه وهو يقول:

– أيها الغبي ستضيعنا جميعًا بسبب نزواتك الطائشة ، هذه الفتاة ستدمرنا حتمًا، بسببها أصبحوا يتحرون عنا.. إنها تعرف أكثر مما ينبغي وقد نخسر كل شيء ونقضي حياتنا في السجن.. تخلص منها وإلاّ حطمت رأسك، ولا تترك أثرًا وراءك.

كانت تلهث وصدرها يعلو ويهبط بقوة، داهمها شعور بالغثيان، لم تتصور أن "جاسر" وأباه يخططان لقتلها.. يال السخرية !.. لقد فكرت للتو في الاحتفاظ بالطفل وأن يربياه سويًا !.

لم يكن من الصعب على "جاسر" أن يشعر أنها ليست على ما يرام، سألها:

–ماذا أصابك ؟

حاولت "مارجريت" إخفاء الحقيقة عنه قائلة:

-لا شـــيء إنهـا أعراض الحمـل.. إنني متعبـة يجـب أن أعود إلى المنزل.. سنستكمل حديثنا لاحقًا.

لم تصدق "مارجريت" بسـهولة أنها استطاعت الخروج من شقته وهي على قيد الحياة.. ركضـت نحو سـيارتها وأدارت محركها وفرت بعيدًا، كانت تلتفت خلفها وجلة وهي تخشـى أن يكون قد أرسـل خلفها من يطاردها.

كانت أطرافها باردة كالثلج وبشـرتها شـاحبة كالموتى ، ورجفة خفيفة تسري في أوصالها لم تتوقف حتى وصلت إلى القصر.

تركض عبر الردهـة الطويلـة متجهـة إلى غرفـة "بهـاء"، تطرق البـاب بقوة.

كان "بهـاء" قد انتهى لتوه من أخذ حمام دافئ ويقوم بتجفيف شـــعره المبتل حين سمع صوت طرقاتها على بابه، مضى مسرعًا ليفتحه ولم يتوقع أن يرى "مارجريت" على حالها تلك تكاد ترتعد خوفًا والذعر يبدو في عينيهـا، وقبـل أن يـدعوهـا للـدخول كـانـت قـد دفعتـه برفق ودخلت بالفعل.

بحسم قالت له: "أغلق الباب"

كان مندهشًـــا، لكنه أغلقه على أي حال وقبل أن ينطق بحرف، قالت له:

-لقد عرفت القاتل.

-بهاء مندهشًا- أي قاتل تقصدين ؟.

-مارجريت- قاتل صـديقك "هاني" وهو بالمناسـبة يخطط لا قتلي ولا تسألني كيف عرفت فلي طرقي الخاصة.

-بهاء- حقًا !.. من هو ؟.

-مارجريت- إذا أخبرتك سـتكون طرفًا في هذا وسـتصـبح حياتك في خطر، ليس أنت فحسـب بل أخاك و"مازن" أيضًـا.. فهل أنت مسـتعد لتحمل العواقب ؟.. هؤلاء الأشـخاص خطرون للغاية فهل تسـتطيع حمايتي منهم وأنت قد عجزت عن حماية نفسـك حين اعتدى بعض رجالهم عليك بالضرب.

هل تستطيع أن تبعدني عن المسائلة القانونية ؟

حتى الآن لا تزال أمامك فرصـة للتراجع لكنك سـتفرط بذلك في حقك وحق دم صديقك ، أما بالنسبة لي فقد أتصرف بطرقي الخاصة إن لم تتصرف أنت.

-بهاء- ماذا تنوين أن تفعلي ؟

-مارجريت- لا تسألني.. فقط أطلق لخيالك العنان وتخيل الجزاء الذي يستحقونه.

-بهاء- الموت.. هذا ما تفكرين به أليس كذلك ؟.

-مارجريت- لا تشـــغل بالك بما أفكر فيه وفكر أنت هل تســـتطيع الوقوف في وجه هكذا نفوذ وهكذا فســـاد ؟.. فكر جيدًا فلســـت في عجلة من أمري.

***

سحابة يأس ألقت بظلالها على "مارجريت" و"بهاء" حتى أنها انعكست على "مازن" الذي لم يعد يفهم شـــيئًا مما يدور حوله.. فقط شـــعر بالخطر بعد أن ألح عليه عمه بأن يرحل من هنا ويعود إلى أمريكا وينضـــم لوالده ريثما يتمكن من حل بعض المشـــكلات التي لم يحدد ماهيتها، لكن الفتى أصر على البقاء وعدم الهروب.

مقتل "هاني" على يد مجرمين ذوي نفوذ جعل "بهاء" يشـــعر باليأس والغضـــب المحتقن الذي لا يســـتطيع أن يبوح به، فهو لا يملك من الجرأة ما يكفي ليعلن عن ما يعرفه من معلومات عن القضـــية التي كان يحقق بها صديقه قبل مقتله، خاصة أنه لا يملك أدلة كافية.

وحدها "مارجريت"تستطيع مساعدته على الإيقاع بهم.. وحدها تعرف القتلة، لكنه لم ينسى أنه رفض صفقتها لأنها متهمة بجرائم قتل لم تبرأ ساحتها منها ويبدو له أنها قد تخطط للمزيد منها الآن.

تساءل هل عليه أن ينسى الأمر حفاظًا على حياته وحياة عائلته ؟.. وهل يترك "مارجريت" تواجه مصيرها مع هؤلاء القتلة الذين يهددون حياتها؟ ، لكنه بذلك سيخالف مبادئه وضميره ويضيع دم صاحبه هباءاً.

ماذا عليه أن يفعل إذاً ؟!

هل يطلب من "مارجريت" المساعدة ؟

إن ذلك ليس بالأمر الهين بالنسبة إليه، لكن يبدو له أنه المخرج الوحيد.

أسبوع كامل انقضى على مقتل صديقه والحديث الذي دار بينه وبين "مارجريت" كان الأسوأ بالنسبة إليه قضاه متأرجحًا بين الشك واليقين والأمل والقنوت ، منعزلًا في غرفته طول تواجده بالمنزل ولا يتحدث إلى أحد.

ما زاد من يأسه هو علمه بتولي وكيل نيابة حديث التخرج للقضية التي كان يعمل عليها صاحبه القتيل، وكانت صدمته عندما أغلق

القضـية لعدم كفاية الأدلة وقرر حفظها وسـجلت الجرائم على أن من قام بها مجهول !.

وبغض النظر عن أسـباب ذلك وما سـمعه "بهاء" من زملاءه بالسـلك القضـائي حول التهديدات التي تعرض لها المسـتشـار الشـاب من أشخاص ذوي نفوذ لم يسمهم ، إلاّ أن فكرة أنه لا يجب عليه الوثوق بـــ"مارجريت" أخذت تلح عليه مجددًا؛ فهي الأكثر استفادة من غلق القضـية، لكنها ليسـت المسـتفيد الوحيد فهناك رفيقها "جاسـر" الذي سـبق أن حذره منه "هاني" قبل مقتله.. نعم "جاسـر" وعائلته لا شـك في أن ذكر اسـمهم بالتحقيقات أزعجهم، تسـاءل "بهاء" عن سـبب تخوفهم الشـديد وعن ما إذا كان لديهم ما يخفونه ويخشـون افتضـاح أمره ؟!. قاده تفكيره إلى نتيجـة واحدة هي أن لمقتل صـــديقه علاقة وطيدة بعائلة "جاسر".

كانت "مارجريت" قد انتهت من وضـع سيارتها بالمكان المخصص لها داخل الڤيلا، وفور أن غادرت السـيارة اصـطدمت عيناها به أمامها، قبل أن يتبادلا التحية تفاجأت به يقول لها:

– إنه "جاسر" أليس كذلك ؟.

–مارجريت– ماذا تقصد ؟.

–بهاء– قاتل "هاني" هو "جاسر" أليس كذلك ؟.

-مارجريت- كيف عرفت ذلك ؟.

-بهاء- كل الاســـتنتاجات تقود إلى ذلك.. أحتاج إلى مســـاعدتك.. أخبريني بما لديكي.

-مـارجريت- مـا الـذي دفعك لتغيير موقفك ؟.. كنت ترفض التعاون معي فيما مضى.

-بهـاء- أنـا يـائس للغايـة .. لقـد تحـدثـت إلى أخي وطلبـت منـه اصـطحاب "مازن" إلى أمريكا في أقرب وقت ممكن لبضـع أسـابيع، لم يعد هناك ما أخشـــى فقدانه، أريد أن أنتهي من كل هذا.. أنت تعرفين هؤلاء الأشخاص ووحدك تستطيعين تقديم المساعدة.

-مارجريت- هل تقسم على حمايتي والتوقف عن محاولة سجني ؟.

-بهاء- نعم. لكن ابقي بمنأى عن كل ذلك.

-مـارجريـت- أنـا أقدر شـــعورك يـا "بهـاء" فـأنـت تنتمي لعـالم غير عالمي.. في عالمك تسـود قوة القانون وفي عالمي يسـود قانون القوة وتحكم شـــريعة الغاب.. في عالمي البقاء دائمًا للأقوى.. الأقوى وحده من يضـــع قوانين اللعبـة... وحده من يبدأها ووحده من يقول متى تنتهي .

في عالمي لا شيء يردع الأقوى سوى ظهور قوة أخرى أكبر منه أو أن يداهمه الموت.. صدقني ما رأيته أنت لم يكن سوى لمحات عن هذا العالم.

-بهاء- لو كان كلامك صحيحًا لتحول العالم إلى غابة وسادت الفوضى، لا يمكنك التعميم ، ليس معنى أنك محاطة بمجرمين ذوي نفوذ أنهم لن ينالوا جزائهم وأن القاعدة تصبح أن يفلت المجرم بجرمه.

-مارجريت- راقب ما يحدث حولك جيدًا.. قريبًا جدًا ستسود الفوضى وستحكم العالم شريعة الغاب .. الشر يتنامى بشكل لا يمكنك تصوره.

قوانين البشر كلها مليئة بالثغرات، هذه الثغرات تخدم دائمًا الأقوياء.. الدول العظمى ، كبار الساسة ، أصحاب الثروة والنفوذ.

لا توجد عدالة حقيقية في هذا العالم.. قريبًا سينهار النظام العالمي، سيحدث ما يشبه الثورة .. ثورة هائلة تفوق كل ما شهده العالم من ثورات ، البشر سيثورون على عالم المادة وقوانين السادة وسيسعون للتحرر من عبوديتهم، لكن ستسفك أرواح كثيرة في سبيل تحقيق ذلك، ستغمر الدماء شوارع وطرقات هذا العالم؛ فهناك من سيرفضون أن يتحرر البشر من العبودية.

يحاولون إيهام الناس بأنهم يحققون العدالة، لكنهم لا يحققون سوى مصالحهم الخاصة.

-بهاء- لماذا تظنين أن العالم يخلو من العدالة ؟.

-مارجريت- لا توجد عدالة في توزيع الثروات فهناك دول شعوبها تموت جوعًا كل يوم ودول أخرى غارقة في نعيم مترف وحياة مادية بلا روح، الشعوب الجائعة ستثور حتمًا وستحرق الأخضر واليابس، وشعوبهم قريبًا سيتمردون على عالمهم المادي ولعبة السادة.

المواثيق الدولية وقوانين حقوق الإنسان ما هي إلى محض هراء، لا يلزم القوى العظمى فهي ليست سوى واجهة لرأسمالية شرسة تلتهم كل ما تصادفه في طريقها.

وهناك الرشوة والفساد السياسي والاقتصادي.. كلها طرق تجعل من أشخاص قادرين على تطويع القوانين لخدمتهم وتحصين أنفسهم من العقاب، كما كان يفعل عمك وكما يفعل "جاسر" وأباه.

-بهاء- حديثك يخيفني فأنا أراه يلامس الواقع بشكل ما ، لكن لعلك متشائمة أكثر مما ينبغي ولا تنظرين سوى للجانب السيئ من حضارة العصر الحديث.. هل ما قولته لي إحدى نبوءاتك أم أنه استقراء للواقع ؟.

-مارجريت- مزيج من هذا وذاك.. كانت حقًا رؤيا مخيفة.. أشخاص جوعى يهاجمون المتاجر والأسواق وبيوت الأغنياء ، يسرقون كل ما تطاله أيديهم ورجال أثرياء يصيدونهم بنيرانهم كالعصافير فيسقطون صرعى، تزداد الجموع شراسة ويصبحون كأسود جريحة أصابها الصرع فيحملون أدوات قتل بدائية ويقتلون كل ما يصادفهم..

دماء كثيرة تغمر الشوارع.. حرائق في كل مكان.. أطفال مذعورون يبكون ونساء يصرخن.. بشر يأكلون بعضهم بعضًا ويأكلون الشجر والحيوانات الضالة.. ورأيت مشاهد لمعالم عالمية تحترق وبعضها تحول إلى حطام.

فكرت كثيرًا في تلك الرؤيا فلم يسبق أن خابت لي رؤيا من قبل.. لا شك في أن لهذه المشاهد تفسير وبعد تأمل عميق توصلت لما قلته لك.

-بهاء- ما الذي سنقوم بفعله إذًا ؟.

-مارجريت- سوف أخبرك ، لكن ليس الآن فقد يكون هناك من يسترق السمع ، تعالى إلى غرفتي في المساء وسأخبرك بكل شيء.

***

الفصل الثالث عشر

"اعتقال"

عندما وصـل "سـام" إلى الولايات المتحدة برفقة والده وزوجة أبيه لم يمكث بالمنزل سـوى ليلة واحدة، ففي اليوم التالي لوصـوله ذهب لحضـور فل راقص دعاه له أحد أصـدقاءه الأمريكيين الذي كان قد تعرف إليه الصيف الماضي.

قاد سيارته البيضاء الرياضية التي كان يحتفظ بها في جراج المنزل الواقع بنيويورك، بعد أن تأكد من هندامه وتطيب.

وحين وصل إلى الحفل تملكه شعور بالغرابة وعدم الارتياح .. صخب شديد وموسيقى جنونية .. شباب وفتيات ثملين يرقصون بمجون وآخرون يتبادلون الغرام، خابت ظنونه تجاه الحفل الذي حسبه سيرفع من روحه المعنوية ، لكنه على النقيض جعله يشعر بوحدة وغربة مضاعفة وانتهى به الأمر منزويًا في أحد الأركان يحتسي الجعة والتكيلا حتى ثمل تمامًا، ووجد نفسه يشاركهم رقصهم الجنوني ولم يعد يعي جيدًا ما يفعله حتى وجد نفسه برفقة مراهقة شقراء في إحدى غرف منزل صديقه تحاول إغواءه .. لا يعرف ما الذي دفعه لتذكر "مارجريت" ؟.. قال لفتاة الثانوية الشقراء إن لديه حبيبة، ثم خلّفها وراءه وغادر المكان.

يدخل إلى سيارته ، يضرب براحة يده جبينه قائلاً:

– ما الذي كنت سأفعله ؟

يقود سيارته مسرعًا ولا يلتفت إلى لعداد السرعة ولا إلى إشارة المرور الحمراء .

لم يمضـــي الكثير حتى وجد ســيارة للشــرطة تطارده، أمره الشــرطي بالتوقف، ولم يكن من الصعب على الضابط أن يتبين أن "سام" ثملًا ، لذا وضع القيود حول معصميه وألقى القبض عليه بتهمة القيادة تحت تأثير الشراب.

كان قلبه يخفق بقوة آلمته حين جعله الشـــرطي يخطو بقدميه إلى الزنزانة، شــعر بأن الأرض تدور به ، لكن رأســه في الحقيقة ما كان يدور.

يغلق الشـــرطي باب الزنزانة فيشـــعر "ســـام" بأن قلبه قد انخلع من مكانـه، وأنـه يخطو خطواته نحو الجحيم، يقدم ســـاقًا ويؤخر الأخرى وهو لا يكاد يستوعب ما آلت إليه الأمور.

تلتقي عيناه بأعين مجموعة من رجال العصابات فتنتابه رجفة تسري في أوصـــاله ، يشـــيح بعينيه عنهم ويســـير ببطء نحو الجدار البارد ليجلس منزويًا في أحد أركان الزنزانة.

تملكه شعور مقيت بالخوف جعل أوصاله ترتجف عندما اكتشف أنهم يرمقونـه بنظرات مخيفة وقد أخذوا يتهامســـون .. كاد أن يبول على نفسه خوفًا !.

ضم ساقيه نحو وجهه وطوقهما بذراعيه لعله يبعد عن نفسه الخوف الذي جعله متسمرًا في مكانه.

تذكر شجاره مع صديقه "شهاب" وكل المرات التي قام فيها صديقه بحمايته منذ أن كانوا صغارًا وتصدى لمضايقات الآخرين له ومحاولاته لضربه.

تمنى لو أن "شهاب" إلى جانبه الآن .. تذكر "مارجريت" وصديقها المخيف "جاسر" فقال لنفسه:

"يالك من جبان !.. كيف يمكن لها أن تحبك وأنت عاجز عن حماية نفسك ؟! "

انتزعته من أفكاره السوداوية حقيقة أكثر سوادًا ، عندما نهض اثنان منهم من مجلسهما وتقدما نحوه.

كان أحدهما قد صبغ جسده بالأوشام ووضع الكثير من الأقراط الرخيصة في أذنيه وأنفه، أما الآخر فكان زنجيًا ذا عينين شرستين.

ارتعدت فرائس "سام" حين أحاطا به ، لكنه لم يجرؤ على الكلام فقد عقد الخوف لسانه.

دنا منه صاحب الأوشام وأمسك بخصلة من شعره الذهبي المسترسل وقربها إلى أنفه ليشتم رائحتها ، ثم يضع أنامله على صدغ "سام" ويتحسس رقبته وهو يقول:

– شعر رائع وبشرة تشبه الفتيات

كان "سام" في تلك اللحظات يحاول استجماع شتات شجاعته المفقودة وقام بإبعاد يد المتحرش، وهو يقول:

– ابتعد عني

يتبادل الاثنان المخيفان نظرات ذات مغزى ثم يضحكان بسخرية، يعاود ذا الأقراط الكرّة ويتحسس صدر "سام" الذي تضاعف خوفه، وقال لهما:

– ماذا تريدان مني ؟.. أقسم لكما أن الحراس أخذوا كل متعلقاتي .. ليس معي أي مال.

يمسك صاحب الأوشام بقميص "سام" بقوة وهو يقول له هامسًا:

– اهدأي يا فتاة نحن فقط نريد أن نلهو معك.

يخرج الزنجي عن صمته ويقول لـ"سام" الذي بدأ بالصراخ:

-اهدأ إن كنت لا تريد أن تتأذى.

يمزقان ثيابه ويتحسسان جسده وهو يتوسل إليهما أن يدعاه بسلام ، لكنهما يزدادان شراسة، يحاول دفعهما فيكيلان له الركلات واللكمات.. يتأوه ويحاول الصـــراخ مجددًا كي يأتي الحراس لنجدته، لكن الزنجي أحضر عصابة من القماش وكمم بها فاه، بينما يحاول الآخر تجريده من ثيابه عنوة.

تدفق دموع "ســـام" بغزارة على وجنتيه وتمنى لو أنه في كابوس وسيستيقظ منه.

نهض رجل آخر ضخم الجثة كثيف الشارب يربط رأسه بمنديل من القماش الأســود اللون يرتدي قلادة في منتصــفها جمجمة فضــية ضخمة.

نظر إليه "ســام" المســجى على وجهه نظرات توســل بعينان باكيتان محاولًا إثارة عطفه ليخلصـــه من بين يديهما، لكنه دنا منه وقبض بكفه على ذقنه ليجعله في مواجهته ، أخرج من جيبه شـــفرة حلاقة وجعلها ملاصقة لرقبة "سام" وهو يقول:

- قم بحركة إضافية وسأقطع عنقك.

لم يتخيل "سـام" في أسـوأ كوابيسـه يومًا أن يمر بتلك التجربة المريرة التي خاضـها في تلك الليلة، في ذلك الوقت فاضـت دموع عينه كما لم تفض من قبل.. دموع خوف.. دموع ألم.. دموع ذل وخزي وعار.

تمنى لو يلفظ آخر أنفاســـه لينجو من بين أيـديهم ، جعلتـه آلامـه المبرحة يدرك أنه لا يعاني كابوسًا بل واقعًا فاق كل الكوابيس.

صوت شرطي يقترب من الزنزانة جعل الثلاثة يبتعدون ويتركون "سام" لآلامه وبقع دماء أحاطت به وبرودة الجدران التي تلفح جسـده العاري في ذلك الطقس المتجمد.

حين فتح الشـرطي باب الزنزانة شـهق عندما وقعت عيناه على الفتى الملقى على الأرض على حاله تلك، فصاح فيهم قائلًا:

- أيها المنحرفون .. ما الذي فعلتموه بالفتى ؟

ينادي زملاءه الشـــرطيون وهو يكيل الســـباب للمعتدين، وحين جاء الزملاء أصـيبوا بالصـدمة فقام بعضـهم بتغطية "سـام" بغطاء سـميك وحمله إلى خارج الزنزانة حتى تأتي سـيارة الإسـعاف لنقله إلى أقرب مسـتشـفى، بينما قام شـرطيان بضـرب الجناة بعصـي غليظة جعلتهم يصرخون.

لم يكن "سام" يحرك ساكنًا حتى فحصه الطبيب وضمد جراحه النازفة ، بدا كأنه فارق الحياة رغم أن قلبه ورئتيه وسائر أعضاء جسده لا تزال تنبض بالحياة، لكن شيئًا في داخله قد مات.

قضى الليل ممدًا على سرير بالمشفى لم ينم خلاله ولو لبرهة واحدة ، ولم يتحدث على الإطلاق ورفض أن يجيب على تساؤلات الشرطة ولا الطبيب الذي قال لهم:

"ما تعرض له كان قاسيًا.. إنه مصاب بالصدمة"

وفي الصباح حضر أحد أقرباء "سام" من جهة أمه وبرفقته محام لاصطحابه من قسم الشرطة ودفع كفالته ، وبحوذته ثياب نظيفة لـ"سام" بعد أن أبلغته الشرطة بما حدث لقريبه ليلة أمس.

حين رأى "سام" قريبه الشاب ارتمى في أحضانه وأجهش ببكاء مرير.

سأله مأمور القسم إذا كان يرغب في إقامة دعوى قضائية ضد المعتدين عليه، لكنه رفض رفضًا قاطعًا وقال:

- لا أريد لأحد أن يعلم بشأن ما حدث.

عندما غادرا القسم وصعد "سام" إلى سيارة قريبه، قال له:

- إياك أن تخبر والدي بما حدث.. لا تخبر أحد بما جرى.

رد قريبه الذي بدا غير مقتنع:

– ولكن يا "سام" هؤلاء المجرمين يجب أن ينالوا جزائهم.

–ســام– قلت لا، هذا الأمر يخصــني وحدي.. والآن خذني إلى منزلي فأنا متعب.

–الشاب– ألن تعود إلى المشفى ؟ .. تبدو في حال مذرية.

–سام– أرجوك خذني إلى البيت.

وطوال طريقهما إلى منزله لم ينبس "سام" ببنت شفة، فقط كان يمسح من آن لأخر دمعة فقد ســـيطرته عليها ، بينما ينظر إلى الأفق عبر النافذة الزجاجية، الشعر بالندم يحاصره ويتساءل ماذا لو ..؟

كان ذلك في الظهيرة حين عاد إلى المنزل ، أخرج مفتاحه وفتح الباب ودلف عبره بخطى مترنحة وهو يستند إلى الجدار، وجعله صوت والده الغاضب يتسمر مكانه.

كان والده جالسًا على الأريكة يدخن سيجارًا وقد قطب حاجبيه، وحين رأى إبنه وقف يحدق فيه وهو يقول بعصبية بالغة:

– أين كنت طوال الليل ؟.. جعلتنا قلقين للغاية .. لماذا أغلقت هاتفك ؟ .. أجبني.

-سام بصوت مرهق- أنا متعب ولا طاقة لدي للشجار.

يخطو والده نحوه دون أن يحرك عيناه عنه، يقول له:

-ما الذي أصـــاب وجهك ؟.. هل تشـــاجرت مع أحد ؟.. قل لي بأي مصيبة تورطت.

-سام- لا شيء.. حادث بسيط.

-الأب- لماذا تترنح هكذا ؟ هل أنت ثمل ؟ .. ما الذي أصـــابك ؟.. أنت لست ولدي الذي أعرفه !.

حين تسـللت أصـوات شـجارهما لزوجة أبيه التي تطهو طعام الغداء بالمطبخ هرعت إليهما، وحين رآها "ســـام" ثارت ثائرته ؛ فرغم أنها تحاول جاهدة أن تحسن معاملته طوال عام كامل هي مدة زواجها من أبيه إلاّ أن مجرد رؤيته لها تذكره بوفاة أمه وتعزز عليه فكرته السرية عن كونها قُتلت على يد أبيه !.

هذه الفكرة كانت وحدها كفيلة بجعله يتفنن في إزعاجهما دون أن يصـارحهما بحقيقة شـعوره، فهو لم يجرؤ يومًا على مصـارحة أبيه بظنونه تلك .

قال لوالده بغضب جنوني لم يسبق أن حادثه بمثله:

– وكأنك تهتم لأمري.. وكأنك تهتم لشيء غير هذه الساقطة والشيء الذي تحمله في بطنها !.

طوال ذلك الوقت كان الأب يحاول ضبط أعصابه؛ لكن كلمات "سام" الوقحة جعلته يفقد هدوءه ويصفعه على وجهه.

مرت لحظات صمت قاسية قبل أن تصرخ زوجة أبيه الشابة في وجه زوجها قائلة:

– فاض بي الكيل.. لم أعد أستطيع التحمل.. لو كان حقًا ولدك لتحاملك على نفسي أكثر.. حاولت كثيرًا أن أتجاهل حماقاته ، لكني لم أعد أحتمل المزيد.. عليك أن تختار وبيني وطفلنا وبين هذا اللقيط.

سقطت كلماتها على رأس "سام" كالصاعقة ، وقال محتدًا :

– ما الذي تقولينه ؟

–الأب– اصمتي الآن.

–الزوجة– لن أصمت بعد اليوم.. أخبره بالحقيقة وإلاّ سأرحل من هنا.

–سام– عن أي شيء تتحدث هذه ؟ .. تكلم يا أبي.

-الأب- إنها لا تعي ما تقوله.

-الزوجة- قل له أنك لست أباه.

"سام" يشعر بأن الأرض تدور به مجددًا ، يقول لوالده في توسل:

-هل هذا صحيح ؟.. أنت لست أبي !.

-الأب- سام.. عزيزي أنا من رباك منذ ولادتك وكنت لك والدًا صالحًا .. لا يكنك أن تقول أنك لست ابني.. إنها مسألة قديمة كدت أن أنساها. أرجوك اعتبر أنك لم تسمع شيئًا من هذا الكلام.

-سام- ابن من أنا ؟

-الأب- لست أعرفه لقد مات قد أن أتزوج والدتك، كنت لا تزال جنينًا في بطنها في بداية حملها بك وأخفت أمرك عني عند الزواج، وبعد خمس سنوات من زواجنا عرفت الحقيقة وكنت غاضبًا للغاية وأردت أن أهجرها لشعوري بالخيانة ، لكنها كانت قد أحبتني بصدق فلم تحتمل غضبي عليها وقراري بتركها فقامت بقطع شرايينها ونزفت حتى الموت، لم أستطع إنقاذها.لم أسامح نفسي على ما حدث لها وقررت أن أدفن السر بداخلي كي لا أفقدك أنت أيضًا.

لم ينتظر "سام" أن ينهي الرجل حديثه بل انطلق كالسهم يصعد الدرج إلى غرفته، متجاهلًا آلامه، أوصد الباب خلفه ورأسه يكاد ينفجر.

عاد ليجهش ببكاء مرير وتضـــاعف شـــعوره بالحزن والألم والمرارة لتكتمل عناصـــر المأســـاة كملحمة تراجيدية، أخذ يحطم كل ما تطاله يدها ليهشم المرآة والنوافذ.

الأب وزوجته الذان صـعدا الدرج خلفه مسـرعان يطرقان على الباب ، والأب يتوســل إياه بأن يفتحه تارة ويوبخ زوجته ويحملها المســئولية تارة أخرى.

عندما رأى"ســـام" حطام الزجاج واتته رغبة في إنهاء حياته ، وللمرة الأولى في حياته تأتيه الشجاعة لفعل شيء حتى لو كان ذلك الشيء هو إزهاق روحه.

بأيدي مرتعشـة يمسـك بقطعة من الزجاج ويُقربها من معصـمه ببطئ وجسده يتصبب عرقًا باردًا.

يغلق عينيه ويضـغط على قطعة الزجاج الحادة ليجرح معصـمه، يتأوه وهو يراقب الدماء تتدفق بغزارة.

حين ســـمع الأب تأوهاته تأوهاته تملكه الهلع، حطم باب الغرفة ليجد الفتى ممدًا على الأرض والدماء تتدفق من معصـمه وتختلط بصـرخات الوالد المكلوم وزوجته الهلعة.

يفتح عيناه فجأة ليجد نفسه ممدًا على سرير بإحدى المستشفيات والأب وزوجته جالسان يبكيان ولكن سرعان ما تهللت أساريرهما فور أن رأياه يستعيد وعيه، كانا يظنان أنه هالك لا محالة، وهكذا ظن "سام" أيضًا أنه سيقابل أمه الراحلة بعد لحظات.

أحس بأنه قضى عامًا نائمًا وداهمه شعور بالغرابة تجاه عودته للحياة من الموت المحقق، مرت لحظات اختلطت فيها دموع الأب وابنه واعتذارات الجميع.

حين أقام الليل مراسمه اليومية وأسدل أستاره القاتمة كان "سام" يتدثر بغطاء سميك يحميه من برودة الأجواء ورياح باردة تسللت عبر نوافذ المشفى.

ذكريات ما حدث له في تلك الزنزانة تطارده أيضًا في نومه، لازال المجرمون يطاردونه في أحلامه، يشهق فجأة كمن نجا لتوه من الغرق وينهض من مضجعه، يلتفت حوله فيجد والده إلى جواره ، وقد تملكه القلق وهو يقول:

-هل أنت بخير يا بني ؟

-سام وهو يحاول طمأنته - لا شيء إنه كابوس فقط.

-الوالد- أنا آسف يا بني.. آسف لما أصابك ولأنني لم أكن إلى جوارك حينها.

-سام- عن أي شيء تتحدث ؟

-الوالد- لا بأس، لقد اعترف لي قريبك بكل شيء، ليس من الحكمة أن تُخفي عليّ الأمر وأن ترفضهم أن يعاقبهم القانون.

-سام- أرجوك لا أريد التحدث بالأمر.

يشيح بوجهه قائلًا:

-فقط أعدني إلى الديار أرجوك .. يجب أن أسافر.

-الأب- لكنك لا تزال متعبًا.

-سام- أرجوك لن أطلب منك شيء آخر، أريد فقط العودة على أقرب طائرة. أنا بحاجة إلى أصدقائي.

-الأب- كما تريد. أريدك فقط أن تعلم بأننا نحبك وأنني لم أعتبرك يومًا أنك لست ابني.. زوجتي قالت ذلك لأنك أهنتها ولم تكن تضمر سوءًا، عليك أن تعذرها فالحمل جعل منه امرأة عصبية شديدة التحسس.

-ســام- لا بأس. انســى الأمر. لا داعي لوجودكما بالمشــفى، عودا للبيت لترتاحان وفي الصباح تعال لتأخذني من هنا.

على مضـــض غـادر الوالـد الحجرة وهو يعي أن وجوده وزوجتـه بالمشـفى أصبح بلا جدوى بعد أن أطمئنا على "سام" ؛ فهو على أي حال مضــطر لاصــطحاب زوجته الحامل إلى البيت لتخلد إلى الراحة فموعد وضعها قد اقترب.

كانت تجلس على كرســي في الردهة بعد أن اطمأنت على اســتقرار حالته ثم غادرت الغرفة لتتجنب الحديث معه لشـعورها بالخجل وتأنيب الضــمير تجاه ما حدث، وحين رأت زوجها مقبلاً نحوها نهضــت من على كرسيها ودنت منه وهي تتساءل بانفعال صادق عن أحوال "سام" .. قالت لزوجها:

-أعرف أن الكلام لا يجدي لكني أقســم لك بأني آســفة وخجلة من نفسي لبوحي بالسر الذي عاهدتك على حفظه، أشعر بتأنيب الضمير تجاه الفتى.. أنا السبب في انتحاره.

-الزوج- لا تحملي نفسـك فوق طاقتها، فلم يكن حديثك وحده سـبب انتحاره، لقد أخبرني قريب "ســام" بالحقيقة؛ فولدي قُبض عليه لقيادته تحت تـأثير الشــراب وفي الزنزانـة تعرض لاعتداء من مجموعـة من المجرمين الشواذ !.

-زوجة الأب- ياللهول !.

-الزوج- إنه محطم تمامًا .. قلبه منكسر وروحه مهزومة، ينبغي أن أعرضه لاحقًا على طبيب نفسي، أخشى أن تسوء حالته أكثر. إنه يطلب منا السفر إلى الديار في أقرب وقت ممكن.

-زوجة الأب- حسنًا.. هذا أفضل ، أنا أيضًا أفضل أن ألد وسط أهلي بمصر.

-الزوج- والآن علينا العودة إلى المنزل، لاشك في أنك مرهقة وبحاجة للراحة، سأعود في الصباح لاصطحابه.

***

في الصباح بعد أن غادر "سام" المشفى كان أول شيء قام به هو الاتصال بصديقه "شهاب" ، انتظر للحظات قبل أن يجيبه، لم يصدق "شهاب" نفسه حين سمع صوت صديقه، قال له:

- أين أنت ؟.. حاولنا الاتصال بك مرارًا لكن هاتفك مغلق.

يصمت "سام" لبعض الوقت ، مجاهدًا دموعه التي حاول كبح جماحها ، ثم يقول بصوت متقطع:

– أنا بحاجتك.. لقد كنت محقًا.. أنا كالفتيات وعاجز عن الدفاع عن نفسي، أنت من يقوم بحمايتي منذ كنا صغارًا .

–شـــهاب– لا تقل ذلك.. كنت غاضـــبًا ليس إلاّ ولم أقصـــد أن أجرح شعورك .. أنا حقًا آسف .. لا تبكي أرجوك.

–ســام– لا تعرف ما حدث لي هنا.. أنت لا تعرف شـــيء.. أنا خائف .. خائف للغاية وأشعر بالوحدة ، أردت أن أموت لكنهم أنقذوني.

–شهاب– ما الذي تقوله ؟!.. هل حاولت الانتحار ؟!.. ما الذي حدث لك ؟.. أخبرني هل تعرضت للإيذاء ؟.. تحدث أرجوك.

–سام– كان الأمر فظيعًا .

–شهاب– هل أنت في نيويورك ؟

–سام– نعم.

–شهاب– سأحاول أن آتي لك على متن أول طائرة تتجه إلى نيويورك ، كن عاقلًا أرجوك حتى أصل إليك.

–سام– لا بأس لقد تدبرنا أمر الطائرة وسأعود في الثامنة من صباح الغد .. أرجو أن تنتظراني أنت و"آسر" في المطار.

-شـــهاب- خذ حذرك يا أخي.. وإذا احتجت لشـــيء لا تتردد في الاتصال بي .. سأكون بالمطار في الموعد المحدد.

-سام- إلى اللقاء.

***

الفصل الرابع عشر

"الصفقة"

الرياح تصفق بقوة، الغبار الأصفر يتطاير ويختلط بعتمة الليل، صفير الريح ونقيق الضفادع يدنسان حرمة الصمت.

يخطو "بهاء" خطوات حذرة وهو يتجه نحو غرفة "مارجريت"، يلتفت حوله بضع مرات ليتأكد من أن أحدًا لا يراه، كان يشعر بمزيج من القلق والحرج معًا، حين طرق بابها لم تمضي سوى ثوان معدودات حتى فتحت له الباب وهي تحثه على الدخول بسرعة.

طلبت منه أن يجلس على أحد المقعدين المكسوين بالفراء، تجلب مجموعة من الأوراق وقرص رقمي ثم تجلس بجواره.

بصوت هادئ قالت له:

– إليك كل ما لدي من أوراق الصفقات غير القانونية التي كانت بين عمك و"جاسر" ورجال أعمال آخرين وبرلمانيين ومسئولين آخرين، وفي هذا القرص تسجيلات صوتية لبعضهم واعتراف من "جاسر" بوقوفه وراء قتل صديقك.

–بهاء– هل سنقدم الأدلة إلى النائب العام ؟.

–مارجريت– إذا فعلنا ذلك سيقتلوننا، وقد يضغطون على النائب العام نفسه .

–بهاء– ما الحل إذاً ؟

-مارجريت- عليك ترتب لي أمر مغادرة البلاد لبضع سنوات ولتجد لي ولأسرتك مكانًا آمنًا للعيش بالخارج، وفي تلك الأثناء تكون قد انتهيت من بيع القصـــر وأملاك عمك وجمع أمواله التي داخل مصـــر، ثم سترسل نسخًا من تلك المستندات إلى جميع الصحف والقنوات لتكون رأي عام يدعم القضية.

لكن احذر من أن تكشف أي شيء يدين عمك حتى ننتهي من إخراج أمواله إلى الخارج حتى لا تتم مصـــادرتها، ثم تكلف رجل قانون تثق به بتقديم بلاغ للنائب العام.

-بهاء- خطة لا بأس بها، ولكن هل تعتقدين أننا سننجح ؟.

-مارجريت- لا تقلق فقد خططت لكل شيء وحتمًا سننجح فما نفعله هو الصواب.

-بهاء- سأرسلك إلى الولايات المتحدة لتقيمي برفقة أخي و"مازن" حتى أنتهي من بيع الأملاك.

-مارجريت- لا بأس ولكن قبل أن أسلمك تلك الأوراق وأقدم لك حياتي على طبق من ذهب أريد أن أضـــمن حقوقي، بعد شـــهر من الآن سأكون قد بلغت الحادية والعشرون من عمري ويحق لي التصرف في أملاكي، وأريد حقي الشـــرعي في إرث والدي وعمتي الذي كان تحت

وصـاية "رمزي" وقيمته عشـرون مليون دولار.. كيف أضـمن أنك لن تهضم حقي بعد أن نعطيك حق التصرف في كل أملاكنا ؟.

-بهاء- ما الضمان الذي تريدينه ؟.

-مارجريت- أريد أن تحرر لي شيكات بقيمة المبلغ، وبعد أن تحصل على المال وتسدده لي.

-بهاء- من حقك أن تقلقي ، لكن كنت أحسـب أن بيننا ثقة بعد كل ذلك.

-مارجريت- أنا أثق في أن رجل قانون شريف مثلك لن يهضم حقي، لكني لا أثق في أن ضـميرك سـيسـمح لك بتهريب أموالنا إلى الخارج قبل أن تعلم مباحث الأموال العامة بمصـدر ثروة عمك ، أظنك ستفضح كل شيء وستفسد خطتي، حينها صدقني عليك أن تخاف على حياتك مني شخصيًا.

-بهاء ضاحكًا- هل ستقتلينني ؟.

-مـارجريـت- ليس هـذا وقـت المزاح، أعطيني الشـيكـات أعطيـك المستندات، أعرف أشخاصًا كثر قد يدفعون الملايين للحصول عليها لكن العدالة لن تتحقق بذلك.

-بهاء- أثق في رغبتك في تحقيق العدالة وإن اختلفنا على طرق تحقيقها وحتى لو خالفتِ القوانين في سبيل ذلك ، لذا أثق في أنك لن تبيعينها. وعلى أي حال سأثق بك وأفعل ما تريدين.

-مارجريت باسمة- الآن عدت إلى رشدك.

***

مر يوم آخر على "ســـام" وهو لا يزال في نيويورك ، كأنه قرن من الزمن ، شعر خلاله بأن عقارب الساعة تسير ببطء السلحفاة، لم يبرح خلاله غرفته منذ عاد إلى المنزل، حاول أن يخلد إلى النوم ، لكن الكوابيس المفزعة عادت لتطارده، فقرر قتل الوقت بقراءة كتاب حتى يأتي موعد ذهابهم إلى المطار.

وطوال الرحلة استمع إلى الموسيقى عبر سماعة الأذن وهو يتظاهر بالنوم ليتجنب الحديث مع أسرته، عندما هبطت الطائرة بمطار القاهرة تنفس الصعداء ورقص قلبه فرحًا لشعوره بأنه قد هرب من المعتدين عليه للأبد، فهو كان يحس بأنهم يطاردونه وأن تجربته المريرة ستتكرر مرارًا فكاد يموت رعبًا كلما راوده ذلك الإحساس.

لم يفرح من قبل بالعودة إلى مصر قدر سعادته اليوم، لم يشعر من قبل بأنه يحمل مثل هذا القدر من المحبة لصديقيه، أحس بالاشتياق الشـــديد لهما وتمنى أن يغلق عينيه ويفتحهما فيكونا أمامه، كانت

عيناه تبحث عنهما وسط زحام المسافرين وذويهم، انتشله من حيرته صوت أباه قائلًا:

-"سام" أليس هذا صديقك ؟.

نظر إلى حيث أشار الأب فلمح "شهاب"، ترك أمتعته برفقة أسرته وركض نحوه ، ما إن شاهده الصديق حتى تهللت أساريره ومد ذراعيه معانقًا إياه بحرارة، بينما ذرف "سام" دموعًا حارة بدا صديقه متماسكًا.

سأله "شهاب" قلقًا:

-ماذا حدث لك ؟.. ما الذي فعلوه بك يا أخي ؟.

يلتزم الصمت ويخفض عينيه إلى الأسفل مكتفيًا بدموعه المنهمرة؛ فازداد قلق صاحبه وضمه معانقًا مجددًا وهو يربت على رأسه، وعندما التقت نظرات "شهاب" بعيني أبا "سام" الواقف إلى جانب زوجته على مقربة منهما جعلته نظرات الوالد التي حملت الكثير أشد قلقًا وحيرة وأدرك أن ما حدث أمر جلل وأن "سام" عاجز عن التحدث الآن، لذا اصطحبه بسيارة والدته، التي استعارها منه اليوم خصيصًا، إلى منزله ليتمكنا من التحدث بمفردهما، لكن بمجرد وصولهما إلى السيارة وأوصدا أبوابها حتى انهار "سام" وفاض بكل ما يجيش بصدره من أحداث يوم مأساته تلك بالسجن التي لم يستطع البوح بها لأحد ، أخبره أيضًا بحقيقة نسبه وانتحار والدته.

وللمرة الأولى منذ تعارفهما الأول في روضة الأطفال يرى "سام" الدموع تتسلل من عيني "شهاب" ، فطوال تلك السنوات كان هو الطفل البكاء الذي ينفجر باكيًا لأتفه الأسباب، أما "آسر" فكان دومًا يحاول إخفاء دموعه عن أعين الآخرين لكنه حين يخلو بنفسه أو يذهب إلى الدورة المياه المدرسية فإنه يبكي كما يحلو له كي لا يكون محل سخرية من أقرانه وفي مرات قليلة اضطر إلى أن يذرف الدموع أمامهما، أما "شهاب" فكان دومًا الفتى العاقل الرزين الذي يتماسك في أصعب الظروف ، لكنه لم يحتمل اليوم شفقته وحزنه تجاه صديقيه الأعز على قلبه وهو يراهما يضيعان من بين يديه ولا يملك لهما نفعًا.

وحين لمحه "سام " على هذه الحال جفف دموعه والتزم الصمت، لكن صديقه بادره قائلًا:

– أنا حقًا آسف .. ما كان عليّ أن أتشاجر معك في آخر لقاء لنا قبل سفرك.

–سام– لا تحمل نفسك أكثر مما تحتمل فلا ذنب لك فيما حدث لي، لا تقلق بشأني سأكون بخير.. قل لي لماذا لم يأتي "آسر" برفقتك ؟.

–شهاب– آسف لأننا أخفينا عليك الأمر، "آسر" مريض منذ الطفولة وحالته ساءت كثيرًا الآن .. كان لديه عيب خلقي بالقلب منذ مولده ولم يعرف والداه بالأمر وبعد وفاتهما أصيب بالحمى الروماتيزمية ولم

يعالج منها فتدهورت حالته الصحية وازدادت حالة قلبه سوءًا، أخذ يصارع المرض لسنوات لكن الأطباء يقولون الآن إن لم تجرى له عملية جراحية بالقلب فإنه سيموت قريبًا.

-سام- ياللهول .. لماذا أخفيتما عني أمرًا خطيرًا كهذا ؟!.

-شهاب- حاولت الاتصال بك كثيرًا لأخبرك ولكن ..

-سام مقاطعًا- لا أقصد الآن ، بل كيف أخفيتما عني ذلك طوال تلك السنوات ؟.. ألسنا أصدقاء ؟.

-شهاب- السبب أن "آسر" جعلني أقسم ألاّ أبوح بسر مرضه لأحد، إنه شديد الحساسية تجاه الأمر، حتى جدته رفض اطلاعها على مرضه.

-سام- ولماذا لم ترسله للخارج لإجراء العملية الجراحية ؟.

-شهاب- كلانا لا يملك المال اللازم وحالته الصحية تدهورت كثيرًا خلال الشهرين الماضيين، لهذا كنت غاضبًا يوم شجارنا.

-سام- كان عليكما إخباري فبمقدوري مساعدته، والدي لن يتردد في دفع نفقات علاجه، إنه رجل كريم وطيب القلب رغم كل شيء.

-شهاب- أعلم أن "آسر" سيغضب لذلك فهو لا يحب أن يشفق عليه الآخرون، لكني لو لزم الأمر سأقيده وأجبره على السفر، لن أدعه يموت أمام عيناي.

-سام- خذني إلى بيتي لأتحدث مع والدي ، علينا ألا نضيع الوقت.

-شهاب- أنت محق فكل تأخير يقلل من فرص نجاته.

لم يكن من الصعب على "سام" إقناع والده بالتبني بأن يتولى أمر نفقات علاج صديقه الذي يحتضر، فالرجل لا يتأخر في فعل الخير كما أنه لن يرفض طلبًا له في مثل هذه الظروف، لذا وعده بفعل كل ما يلزم.

كان "شهاب" جالسًا خلف مقود السيارة ينتظر عودة "سام" ، وحين عاد إليه وعلى ثغره ابتسامة عريضة فتهللت أساريره، فقد عرف أن أبا صديقه لم يخذلهما.

ولم يمضي سوى يومان حتى كان "سام" ووالده يرافقان "شهاب" و"آسر" في المطار ، بعد أن انتهى الأب من إجراءات السفر وترتيبات العملية الجراحية التي ستجرى للشاب على يد جراح عالمي شهير بالولايات المتحدة.

لم تمضـــي ســـوى بضـــعة أيام على اتفاقه مع "مارجريت" حتى كان "بهاء" قد انتهى من ترتيب كل شـيء وحجز لـــــ"مارجريت" و"مازن" مقعدين على أول طائرة تتجه إلى أمريكا.

كان كلاهما قد انتهى من حزم أمتعته اســـتعدادًا للســـفر، رغم توتر علاقة "مازن" بعمه في الفترة الأخيرة بســـبب "مارجريت" إلاّ أنه كان يخشـى عليه من مصـير مجهول ينتظره بعد سـفرهما، أما هي فبدت هادئة للغاية وقد اتشـــحت ببرود ظاهري تخفي خلفه خوفها من أن ينكشـف أمرها قبل الصـعود للطائرة وأن يرتكب "بهاء" خطئًا ما ، فقط همست في أذنه وهي تتظاهر بتوديعه:

" التزم فقط بخطتنا وســـيكون كل شـــيء بخير، وحاول أن تقيم في فندق خلال الأيام القادمة؛ فذلك أكثر أمنًا لك."

كلما خطت بهم الســيارة بعيدًا عن القصــر انتابها شــعور بأنها طير حبيس في طريقه للحرية، قريبًا ســـتحلق بعيدًا عن ماضـــيها بكل عذاباته وكوابيسه، ستنسى معاناتها مع "رمزي" ورجاله وصدمتها في "جاسـر" وحادثة اغتصـابها، سـتحاول أن تحيا حياة طبيعية أو على الأقل شبه طبيعية لا تشعر معها بأنها مهددة طوال الوقت.

فور أن تغادر ستتخلص من متاعبها نهائيًا، لم يكن من السهل عليها إخفاء نشوتها بالظفر بمرادها وجعل "بهاء" ينصاع لرغبته في النهاية.

تذكرت كراهيته لها وعدائيته تجاهها عند لقاءهما الأول وكيف نجحت في أن تجعل من نفسها صديقة مقربة له وحافظة لأسراره بعدما كان يتخذها عدوة.. فقط ابتسمت ابتسامة عريضة وقد لمع في عينيها بريق الانتصار.

***

كانت صالة الانتظار مكتظة بالمسافرين الذين ينتظرون موعد إقلاع طائراتهم ، بدا "شهاب" متوترًا فاستأذن رفقته بالخروج ليدخن سيجارة قبل صعودهم للطائرة، إلاّ أن "سام" رافقه مدعيًا الذهاب إلى دورة المياه، حين ابتعدا عن الأنظار سأله أن يعطيه واحدة من سجائره؛ فنظر إليه "شهاب" متسائلًا وقال:

- لكنك لا تدخن !.

-سام- كان هذا في الماضي.

-شهاب- لست على ما يرام .. أنت لم تتجاوز ما حدث لك.

-سام- لا شيء يمكنه محو ما حدث.

-شهاب يعانقه قائلًا:

-عدني يا أخي عندما نطمئن على "ســـام" أنك ســـتذهب إلى طبيب نفسي ليساعدك على تجاوز محنتك.

-سام- لا تقلق ، ستكون الأمور على ما يرام.

وبينما كانا يدخنان وقعت عينا "ســـام" عليها.. إنها آخر من توقع رؤيته في هذا المكان .. شـــعر بالحيرة ، ماذا عليه أن يفعل ؟.. هل يذهب إليها ليصافحها ؟.. هل ستصده ؟.. ماذا لو كانت ستسافر إلى غير رجعة ؟!.

فكر في أنه لن يراها مجددًا فتملكه الخوف ، لا يدري لماذا تســـال في ذلك الوقت عن ردة فعلها إن علمت بما حدث له ؟.. كره نفسه ونعتها بالجبن الشـديد ، وقال لنفســه ماذا عســاها ستستفيد "مارجريت" إن تقربت من شخص مثله يعجز حتى عن حماية نفسه ؟.

ولدهشته وجدها تبتسم له وهي تخطو نحوه، تمالك نفسه وكبح جماح أفكاره وقال لها:

-مرحباً

لم تجب التحية لكنها سألته قائلة:

- هل أنت مسافر أيضًا ؟.

-سام- نعم . إلى أين ستسافرين ؟ وهل ستعودين مرة أخرى ؟.

-مارجريت- إلى أمريكا.. لست واثقة من مسألة العودة.

-سام- يالها من صدفة رائعة .. نحن أيضًا في طريقنا إلى هناك.

-مارجريت- نحن ؟.

-سام- أسافر برفقة أبي وصديقاي.. أعرفك بصديقي "شهاب".

حين نظرت "مارجريت" إلى عينيه ومد يده مصـــافحًا تذكرت أمرًا حدث منذ ســـنوات، لقد تذكرت حين نقلت إلى المشـــفى بعد هروبها من "رمزي".. لقد رأته هناك وصـــديقه "آســـر" يتكأ عليه .. لم تكن تعرف اســـميهما ، لكنها رأتهما أكثر من مرة برفقة "ســـام" ؛ فســـألتهما عن صديقهما الثالث.

أطرق "سام"رأسه قليلًا وقال:

- إنه مريض للغاية، هو في حال مذرية ولا أظنه سيحب أن يراه أحد على تلك الحال.. نحن نســـافر اليوم خصـــيصًـــا لكي تجرى له عملية جراحية بأمريكا.

-مارجريت- أتمنى له الشـفاء العاجل.. حين نهبط من الطائرة أتمنى أن تخبرني بمكان المستشفى التي سيكون بها لعلي أستطيع زيارتكم والاطمئنان عليه.

-سام- حسنًا شكرًا لك "مارجريت".

-مارجريت- أراكما لاحقًا.

حين خطت مبتعدة همس "سام" في أذن صديقه قائلًا:

-ألم أقل لك إنها لطيفة ؟.

-شـهاب- يبدو أنني كنت مخطئًا بشـأنها.. من يدري لعله القدر أن تلتقيها هنا.

***

كانت الطائرة تحلق بين سحابات ناصعة البياض، كطائر عملاق مزهو بنفسـه، أخذت "مارجريت" تراقب المشـهد عبر زجاج النافذة وهي مأخوذة بسحره بينما تستمع عبر سماعات الأذن للحن غربي هادئ، أرخت رأسها إلى الخلف سابحة مع ألحانها في عالم آخر مستسلمة لنعاس داهمها.

في تلك الأثناء كان "مازن" يسترق النظر إليها من آن لآخر، كذلك فعل "سام" أيضًا الذي أخذ يتنقل بعينيه بين صديقه المريض وفتاة أحلامه المغمضة العينين وفي أحيان أخرى يحدق في الأفق على غير هدى.

وفي القصر الكبير ذا الردهات الواسعة والأسوار العالية كان "بهاء" منهمكًا وسط أكوام من الأوراق والمستندات حين سمع صوتًا غريبًا بالردهة خارج غرفته.. نهض من على مقعده وغادر الغرفة مفتشًا عن مصدر الصوت .

يخطو بضع خطوات قبل أن يرى ظل إنسان، يدنو منه ولدهشته يجدها أمامه !.. إنها "مارجريت" بشحمها ودمها ، لكنها تبدو أكثر شحوبًا وعيناها لهما بريق غريب يشبه الوميض !.

وقف أمامها مذهولاً فاغر الثغر، وتساءل قائلًا:

-لماذا عدتي ؟!.. لماذا لم تسافرين ؟!.

لم تجبه .. دنو منه أكثر فأكثر .. تمد يدها نحوه حتى تكاد تلامس صدره وهي تقول:

"الليلة سأفي بعهدي لك.. الليلة سترى كل شيء"

مشـــاهد كثيرة تتلاحق أمام عينيه .. أشـــخاص يُقتلون.. صـــرخات وتوســـلات.. بقع دماء.. ملامح الطفلة "مارجريت" المذعورة.. لحظة مقتل العمة "ترجس" .. أشـــخاص مكبلون يتم تعذيبهم.. جرائم عمه تتلاحق أمام عينيه.. ينتابه شعور مقيت بالغثيان..الأرض تدور حوله ثم يفقد وعيه تمامًا.

وحين أفاق "بهاء" من إغماءه كان ممدًا على الأرض في الردهة الطويلة ولم يجد حوله أثر لـ"مارجريت" .

لم يكن هناك سوى الجدران والأثاث والصمت المطبق، وكأن ما حدث لم يكن ســوى حلم عابر، لكنه تســاءل هل يعقل أن يغفو في الردهة ؟!.. ما رآه كان أغرب من الخيال.

***

حين هبطت الطائرة بسلام كانت وسائل الإعلام في مصر تبث فضائح عائلة "جاســـر" وتعلن عن قرار النائب العام بضـــبطه هو ووالده ومنعهما من السفر.

لم تستطع "مارجريت" منع ابتسامة شامتة عريضة رُسمت على ثغرها وهي تشـــعر بالانتصـــار، بعد أن قرأت الخبر على هاتفها الذكي عبر الإنترنت.

حين داعبت أشـــعة دافئة وجه "مارجريت" النائمة جعلتها تفيق من سباتها مبتسمة وهي تشعر بالارتياح للمرة الأولى منذ سنوات .

تثاءبت وهي تتمطئ في دلال، لمحت عقارب الســـاعة تشـــير إلى التاسعة فقررت خلع رداء الكسل وأن تستعد للذهاب إلى المشفى الذي يرقد به صـــديق "ســـام" المريض الذي يفترض أن تجرى له العملية الجراحية اليوم.

لم يكن تعاطفها مع "آسر" هو السبب الوحيد لتلك الزيارة فهي تشعر بالرغبة في التخلص من ســياج الوحدة التي فرضــتها على نفســها لحمايتها أحيانًا وفرضها عليها كلاً من "رمزي" ومن بعده "جاسر" رغمًا عنها.

أصبح من الضـروري أن يكون لها أصـدقاء ، سـتحاول أن تبدأ من جديد في بلد تعرفها فيه أشـباح الماضـي، وسـتحيى مع أسـرة "نزار" حياة أسرية هادئة بدلًا من تلك التيُ حرمت منها.

كما أن الفضول كان يدفعها لمعرفة المزيد عن حياة "سام" الذي سبق أن راودتها بشأنه رؤيا قصيرة.

كان "آســر" في ذلك الوقت يرتجف خوفًا وارتعدت فرائســه بعد أن علم أنه ســيكون مخدرًا في غرفة العمليات بعد ســاعة من الآن ، رغم كل

ما سبق أن قاله لصديقه "شهاب" في لحظة قنوت عن رغبته في أن يدعه يموت إلاّ أنه أدرك في ذلك الوقت كم يحب الحياة !.

ودّ لو أن والدته تعود للحياة مجددًا فتضمه إلى صدرها أو يعود والده من الموت ليشد على يديه ويطمئنه ؛ فهو يعلم كم هي خطيرة العملية التي ستجرى له خاصة أن حالته الصحية متدهورة فقد تودي بحياته؛ لكن الانتظار كان سيضمن له الموت المحقق.

كان جلبه إلى المستشفى في ذلك الصباح بمثابة المعجزة كما أن إقناعه بالسفر للعلاج لم يكن أمرًا سهلاً، ولولا أن "شهاب" قد تشاجر معه مراراً ونعته بالجبان الضعيف لما تحرك من منزله.

وفي ليلة وصولهم إلى أمريكا بالكاد ذاق "آسر" طعم النوم، وكذلك كان حال صديق طفولته، ورغم قلق "سام" إلاّ أنه نجح في انتزاع بضع ساعات ليخلد فيها إلى النوم لم تخلو قط من أحلام مزعجة.

ولاحظ "شهاب" مقدار القلق الذي يعانيه صديقه المريض من رأسه حتى أخمص قدميه؛ لذا لم يدعه يقضي ليلته بمفرده، رغم أنهما بقيا ممددان على الفراش إلاّ أن كليهما هجره النوم وشعر برغبة في ضم الأخر، لكنهما لم يفعلا ذلك فكلاهما يحاول أن يبدو قويًا.

وفي الصباح عادت المتاعب من جديد ليصابوا جميعًا بالجنون.. "آسر" أوصد على نفسه باب دورة المياه ويرفض الخروج من هناك !.

كان من المفترض أن يكونوا في المشفى بعد ساعتين في ذلك الوقت، لكن حالة من الذعر المفاجئ انتابته ودفعته إلى الاختباء بالداخل خوفًا من العملية.

كان يتصبب عرقًا وأوصاله متجمدة ولم يستطع فعل شيء سوى التحديق في العدم !.

أصيب جميع من بالبيت بالخوف من أن يكون سوءًا قد أصابه ؛ فهو لا يرد على نداءاتهم وطرقهم المتواصل على الباب ، لكن "شهاب" لم يعد يحتمل قلقه فقال صائحًا:

– سأحطم الباب.

وعندما تراجع إلى الخلف وارتطم جسده لم يتحطم الباب، لكن وصله صوت "آسر" متوسلًا وقد امتزج ببكاء حار:

– أرجوك لا تفعل ذلك .. لا تدخل إلى هنا .

"شهاب" بينما يعلو صدره ويهبط بقوة:

– هل أنت على ما يرام ؟!.

–آسر بصوت واهن – لا. فقط دعوني بمفردي.

-سام- سنتأخر على المشفى هكذا.

-آســر وقد ازداد إصــرارًا- قلت لكم دعوني وشــأني.. لن أذهب لأي مكان.

-والد ســام - هل تمزح يا بني.. حالتك لا تســمح بمزيد من التأخير وإذا لم تذهب اليوم فلن تتاح لك فرصة أخرى قبل شهر أو اثنين على الأقل.

يسد "آسر" أذنيه ويصرخ فيهم قائلًا: "دعوني"

كان في حال مذرية.. عيناه مغرقتان بالدموع ، يحيطهما ســياج داكن.. بشرته كمرضى الصفراء، أوصاله ترتعش.. أخذ يبعثر الأشياء من حوله بغضــب؛ بينما الثلاثة الوقوف بالخارج يلتفتون لبعضــهم البعض في حيرة واضحة.

تساءل "سام" قائلًا:

- ماذا سنفعل يا أبي ؟!.

-الأب- لا أدري.. لا يمكننا إجباره على إجراء الجراحة ، هذا ليس من حقنا.

-سام- ولكن يا أبي ..

ثم يلتف إلى "شهاب" الممسك بجبينه قائلًا:

-هل ستتركه يرتكب تلك الحماقات ؟

-شهاب واثقًا- اهدأ.. هلاّ تركتماني برفقته قليلًا ؟.

بعد أن انصرفا "سام" ووالد ، دنا "شهاب" من الباب قائلًا:

- لقد غادرا.. هيا افتح الباب ودعنا نتحدث كالرجال ، لا يمكنك الاختباء هنا كفتاة خرقاء.

-آسر- أنا مرتاح هنا ولا أرغب في الخروج.

-شهاب- "آسر" لا تثر جنوني.. لا تدفعني لتحطيم الباب.

-آسر- إذا حطمته فسأقطع شرايني وأقتل نفسي.

-شـــهاب- وإذا تركتك تفعل ذلك ســـأكون بذلك أقتلك.. على الأقل يكفيني شرف المحاولة.

-آســـر- أنا مرتعب للغاية أيها الأحمق.. لا تدري مقدار الرعب الذي بت أحيا فيه ليل نهار .. لا أريد أن أموت يا شهاب.. لا أريد.

"شهاب" يجاهد ليكبح جماح دمعة سالت رغمًا عنه، يقول:

– لن تموت يا "آسر" .. سوف تنجو صدقني.

–آسر– ماذا لو فشلت العملية ولقيت حتفي في غرفة العمليات ؟.

–شـــهاب– توقف عن هذا التشـــاؤم .. أليس لديك ذرة إيمان في قلبك؟!.

–آســر– توقف عن خداعي وخداع نفســك.. آلاف غيري توفوا داخل غرف العمليات وفي المســتشــفيات ، هذا أمر يحدث يوميًا في العالم بأسره.

–شــهاب وقد اســتســلم لدموعه – ألن يكون ذلك أفضــل من رؤيتك تحتضــر بفعل المرض والأدوية.. ألســت أنت من قال لي أنه ســأم الأدوية وزيارة الطبيب ؟.. على الأقل ســتكون لديك فرصــة في أن تنجو وتحيا حياة طبيعية .. ألا يكفيك ذلك لتخرج من جحرك وتتصرف كالرجال.

يســود ســكون رتيب وتنقضــي لحظات قبل أن يفتح "آســر" ويخرج منطلقًا إلى الأسفل.

ينهض "شـهاب"الجالس القرفصـاء من مجلسـه، وقد تهللت أسـاريره، يضم صديقه إلى صدره بقوة وهو يردد:

–ستكون بخير.. ستنجو إن شاء الله.

وعندما حان الوقت عانق "آسر" صديقيه بحرارة ، وشكر والد "سام" على ما فعله من أجله، وطلب منهم السماح عن ما بدر منه صباح اليوم.

وبعد أن أخرجه الممرضون من الغرفة على سرير متحرك ، هرول خلفه "سام" في الردهة ، طالبًا منهم السماح له بكلمة قبل إدخاله إلى غرفة العمليات.. دنا من "آسر" وهمس في أذنه قائلًا:

– لا أعرف إن كان ذلك يفيدك أم لا ، لكني مررت منذ أيام بليلة أسوء من ذلك وحسبت أنني سألفظ أنفاسي الأخيرة ، لكني لازلت هنا أمامك رغم كل شيء.. قل يا رب وستكون الأمور بخير.

"آسر" يهز رأسه علامة الموافقة ، قبل أن يحرك الممرضان السرير ليفلت يد صديقه رغمًا عنه وهو يهمس: "سامي".

***

كانت الشمس قد انتصفت في سماء "نيويورك" حين وصلت "مارجريت" إلى المستشفى بتنورتها البيضاء القصيرة وقميص وردي بلا أكمام وهي ترتدي نظارة شمسية سوداء وقبعة تتدلى من أسفلها خصلات شعرها الأسود الداكن الذي يغطي أكتافها.

كان "سام" واقفًا في انتظارها بصالة استقبال المشفى وهو يحتسي كوبًا من القهوة المثلجة، صافحها وطبع على خدها قبلة صغيرة ، ثم سألها إن كانت ترغب في احتساء القهوة معه فهزت رأسها بالإيجاب.

لم يكن "سام" مُصدقًا لما يدور من حوله .. لا يكاد يصدق أنها جاءت من أجله وأنه جالس برفقتها يحتسيان القهوة الآن، كان يتأمل في حسنها وجمالها حين قاطعت حبل أفكاره قائلة:

- ألا ترغب في التمشية بالخارج ؟.. الأجواء هنا تخنقني.

-سام- نعم أرغب في ذلك، لكن ألا يجدر بنا الانتظار حتى نطمئن على "آسر".

-مارجريت باسمة- عملية كتلك تستغرق ساعات ومكوثك هنا لن يفيد، على أي حال سأذهب بمفردي ما دمت ترغب في البقاء.

-سام- لا انتظري.. سآتي معك.. لا يجدر بي تركك تذهبين بمفردك وأنتي غريبة عن هذا البلد ، "نيويورك" ليست آمنة.

-مارجريت بينما يتجهان نحو بوابة الخروج- وماذا عنك ؟ هل كنت تعيش هنا ؟.

-سام- قضيت طفولتي في لوس أنجلوس، لكننا نمتلك منزلًا هنا في نيويورك نقضي فيه إجازتنا الصيفية كل عام.

-مارجريت- لماذا هاجرتم إلى مصر ؟.

-سام- أمي أمريكية الجنسية ، لذا كنا نعيش هنا، لكن بعد عام على رحيلها أخذني والدي إلى مصر وهناك تابعت دراستي.

-مارجريت- آسفة من أجل والدتك.

-سام- لا بأس إنه أمرمر عليه زمن طويل.

-مارجريت محاولة تغيير الموضوع- هل تعلم شيئًا .. أنا أثق في أن صديقك سينجو.

-سام- هل هذا حدس ؟.

-مارجريت- شيء من هذا القبيل.. لقد رأيت رؤية بشأنه وكان يغادر المستشفى برفقتكم سعيدًا، وأنتم تتساءلون عن المكان الذي ستقصدونه للاحتفال.

-سام- وهل تصدق أحلامك دومًا ؟.

-مارجريت- حتى الآن تصدق.

-سام- أتمنى من كل قلبي أن يحدث ذلك.

لم يشعر "سام" أن السويعات قد انقضت سريعًا وهو برفقة "مارجريت" إلاّ بعدما سمع رنين الهاتف المحمول ، جاءه صوت "شهاب" على الجانب الآخر قائلًا:

– إلى أين اختفيت ؟!.. لقد خرج "آسر" من غرفة العمليات وحالته الآن مستقرة.

لم يكن قادرًا على كبح جماح نفسه حين صرخ فرحًا وهو يعانق "مارجريت" قائلًا :

– الحمد لله .. آسر بخير.

اتسعت ابتسامة "مارجريت" وهي تقول له :

– ألم أقل لك أنه سيكون بخير.. هيا بنا لنعود.

كانت سيارة أجرة تحملهما على جسر "جورج واشنطن" بينما قرص الشمس يذوب في نهر "هدسون" وينثر عباءة بألوان الشفق تغطي سماء المدينة.

تمت

١٤/ ٦ / ٢٠١٣

الفهرس

الفصل الأول_"الغرباء" ٧

الفصل الثاني_"الماضي يعود" ٢١

الفصل الثالث_" الأبواب المغلقة " ٣٧

الفصل الرابع_"الأرواح الغاضبة" ٥٩

الفصل الخامس_"سام" ٧٧

الفصل السادس_"احتضار" ٨٩

الفصل السابع_"عودة الدم" ١١٥

الفصل الثامن_"بئر الأسرار" ١٤١

الفصل التاسع_"صندوق الرسائل القديمة" ١٥٥

الفصل العاشر_"أحزان مارجريت" ١٧٧

الفصل الحادي عشر_"الشك" ٢٠٥

الفصل الثاني عشر_"النبوءة" ٢٢٣

الفصل الثالث عشر_"اعتقال" ٢٤٩

الفصل الرابع عشر_"الصفقة" ٢٦٩